الحيوانُ في صوره الإنسانية

« محاولة التسلّل إلى باطن الحيوان لتحليل
نفسيته وتحديد ذكائه وتفسير طباعه »

الدكتور صالح الأشتر

— ١ —

كان العقاد من الأدباء العلماء المُولعين بمراقبة السلوك الإنساني والسلوك الحيواني والمقارنة بينهما ، وهو يؤكّد أن الإنسان حيوان ، عاقلٌ ناطق فصيح ، ولكنه تعلّم أن يُخفي مشاعره ، وأن الحيوان إنسانٌ بلا عقل ولا نُطق (أعجم) ، ولكنه لا يقدر على إخفاء رغباته فتظهر في سلوكه ، وتتحكّم في طبائعه ، ويدل تأقلمه مع محيطه على مقدار ذكائه (في صالون العقاد لأنيس منصور : ١١٥ و١٥٩) كما تدل محاولاته أحياناً للسيطرة على ميوله ونوازعه ورغباته وأهوائه على حسن تصرّفه لكسب رضا من حوله ، وتآلفه مع الظروف المحيطة به ، ولكن الغريزة غلاّبة ، والطباع الأصيلة لا يمكن إخفاؤها طويلاً ، فيتبدى السلوك الحيواني على علاّته دون أقنعة لأعين المراقبين والدارسين ، وقد حاول الإنسان منذ بعيد أن يتسلّل إلى داخل الحيوان ليحلّل نفسيته ويدرك الدوافع الباطنية التي تُحرّك نوازعه وتحكم طباعه وتُملي عليه تصرّفاته ، وكتاب (الحيوان) لأرسطو يرصد فيه المعلم الأول كثيراً من طبائع الحيوان عن مشاهدة ومعاينة ، وكتاب (الحيوان) للجاحظ يُظهرنا على مراقبته الطويلة بنفسه لأصناف من الحيوان ، لمعرفة طبائعها واكتشاف ميولها وتحليل غرائزها وتصوير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخلاقها .. وسندع الجاحظ الآن وملاحظاته التي اكتسبها من خبرته العيانية ، وتحقيقاته عن الحيوان ، ورصده لطباعه وعاداته ، لنقدّم عرضاً مُتسلسلاً لما في الأدب العربي في عصوره المتوالية من الجاهلية إلى اليوم ، من محاولات الإنسان العربي لوصف الحيوان من الداخل ، وسنعود إلى الجاحظ وما كتبه عن أخلاق عدد من الحيوانات وطباعها : كالجرذان والبغال والسنانير (القطط) والكلاب والخيول ، لنُفيد مما يقوله عنها في تعليقاتنا على ما كتبه الروائي الأميركي وليم فولكنر (١٨٩٧ – ١٩٦٢) عن ذكاء هذه الحيوانات ذاتها في صفحات ثلاث من روايته (اللصوص) التي نُشرت بعد وفاته !

– ٢ –

في أدبنا القديم بعض المشاهد التي حاولت وصف الحيوان وصفاً داخلياً ، وفيها نرى الإنسان يخلع على الحيوان مشاعره ويُعيره عواطفه ويكاد يدفعه إلى التعبير عن أعماقه ، فيُنطقه بما في طوايا نفسه ، لو كان الحيوان الأعجم قادراً على النطق ، وفي معلقة عنترة العبسي أبيات عجيبة نابضة بالتآلف الوجداني بين الفارس العربي وفرسه ، وهو يخوض به معركة طاحنة ، وقد تكاثر عليه الأعداء ، وأثخنوا جهة الفرس وصدره بالجراح « حتى تسربل بالدم » فراح يصهل صهيلاً متقطّعاً ، ويُحمحم حمحمةً تضج بالشكوى ، والعبرات تسيل على خديه ، ولو كان الفرس قادراً على النطق والكلام لحاور فارسه ولناشَدَه الكفَّ عن مواصلة الكرّ والإقدام ، والانصراف عن مواجهة الموت ، إبقاءً على حياتهما ، ولكن عنترة لا يعرف الفَرَّ والإحجام ، ولا يلوي وجه فرسه في ميدان القتال إلا بعد أن يحقّق النصر ويقضي على أعدائه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لَمّا رأيتُ القومَ أقبلَ جَمعُهُمْ يتذامرونَ كَرَرْتُ غير مُذَمَّمِ
ما زلتُ أرميهم بِغُرَّةِ وجهِهِ ولَبَانه حتى تسربل بالدَّمِ
وازورَّ من وقع القنا بِلبانه وشكا إليَّ بعبرةٍ وتَحَمْحُمِ
لو كان يدري ما المُحاورةُ اشتكى أو كان لو علمَ الكلامَ مُكلِّمي

(شرح القصائد السبع الطوال : ٣٥٨ – ٣٦١)

ففي هذه الأبيات يخلع الفارس على فرسه جانباً من إنسانيته ، ويُعير الحيوان بعض خوالج نفسه ، وهواجس وجدانه ، والمعركة الدائرة شديدة الهول ، وقد كشّر الموت عن أنيابه الدامية فيها ليكف عن القتال من يريد الابقاء على حياته ، وهذا الحوار الشاكي الباكي بين عنترة وفرسه يمثل أهوال الحرب وإحساس عنترة نفسه بالخطر المحدق به شخصياً بعد أن تسربل فرسه بالدم وأصبح يزورُّ عن وقع الرماح المسدّدة إليه ، ويحاول أن يتحامى مواجهة نصالها بصدره : فالإنسان والحيوان هنا – وإن يكن عاجزاً عن الحوار والكلام – يمثل كلٌّ منهما طرفاً من شخصية عنترة ونفسيته ، وهما طرفان متناقضان ، ولكن النفس الإنسانية عامرة بالتناقضات ، وقد انتهت المعركة بإصدار عنترة على مصارعة الموت حتى صرعه ، وخرج بفرسه المُثخن بالجراح مُكلّلاً بغار النصر والمجد .

– ٣ –

وفي فجر الإسلام يُطالعنا القرآن الكريم بمثال نادر عن الحيوان ناطقاً كالإنسان بلغة عربية فصيحة مبينة ، فقد أعطى القرآن للنملة أبعاداً إنسانية ، فهي إلى جانب نطقها في تحذير صويحباتها من الخطر الذي يتعرّض له وادي النمل بوصول سليمان وجنوده إليه ، تبدو كائناً بعيد الغور حسنَ المعرفة والتمييز بين القائد وجنوده ، على قسط وافر من الذكاء وسداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النظرة وثقوب الفطنة وإصابة الحكم بتعقّل وتفكّر وموضوعية ، فهي في حزمها ومطالبتها للنمل بالحذر والدخول في جحورها تلتمس العذر لسليمان وجنوده إذا سحقوا النمل بأقدامهم ، لأنهم لا يشعرون :

قال تعالى : ﴿ حتى إذا أَتَوْا على وادي النملِ قالت نملةٌ يا أيُّها النملُ ادخلُوا مساكنَكم ، لا يحطمنَّكم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون * فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال رَبِّ أَوْزِعْني أن أشكر نعمتَك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاهُ وأدخلني برحمتكَ في عبادكَ الصالحين ﴾ [النمل : ١٨ - ١٩] . فدلّ القرآن - كما يقول الجاحظ : (الحيوان ٩/٤) - على أنَّ للنملة بياناً وقولاً ومنطقاً يفصل بين المعاني التي هي بسبيلها ، وقد وعى سليمان - وهو الذي أعطاه الله فهم لغة الحيوان ، من بين أنبيائه جميعاً - قولَ النملة في تحذير صويحباتها وأمرَها لهن بما هو أحزم وأسلم ، « فابتسم سليمان ضاحكاً من قولها ، لما رأى من بُعد غورها وتسديدها ومعرفتها » (الحيوان ١٦/٤) وأعجبه فرط ذكائها وفطنتها واحتراسها فسأل الله أن يعينه على شكر النعم الجزيلة التي غمره بها ليكون من الصالحين .

وهكذا يتبدى لنا الحيوان هنا - من خلال نملة سليمان - في صورة إنسانية ناطقة بكل ما يتطلبه العقل والحزم والسّداد والذكاء وحسن التصرف والتدبير ، وقد سمّى القرآن الكريم جحور النمل مساكن لها ، وجعل من (وادي النمل) موطناً لها ، ليتمّ التقارب بين الصورتين الإنسانية والحيوانية ، في عُرف النبوّة والمعجزة التي اختص الله بها النبيَّ سليمان عليه السلام من فهم لغة الحيوان ، كهذه النملة الحكيمة ، وذلك الهدهد الذي عاد من رحلته إلى اليمن ليُخبره بقوله : إني ﴿ أحطتُ بما لم تُحِطْ به ، وجئتُك من سبأ بنبأ يقين ﴾ [النمل : ٢٢] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— ٤ —

وفي صدر الإسلام يسترعي انتباهنا شاعران مُخضرمان أدركا الجاهلية والإسلام ، وهما لبيد العامري والشمّاخ الغطفاني ، ففي تصويرهما للحيوان لمسات من الحس الإنساني الذي يخلعه الشاعر من ذات نفسه عليه ، ويعيره ألواناً من مشاعره . ومثل هذه اللمسات الوجدانية في الشعر القديم قليلة ونادرة .

ففي معلقة لبيد أوصاف مسهبة لأصناف من الحيوان : الناقة والبقرة الوحشية وولدها والظباء والذئاب والكلاب والفرس ، ولكن وصف الشاعر للبقرة الوحشية التي افترس السبع ولدها ينفرد بتلك اللمسات المؤثرة ، ويُبرز صورة حية من المعاناة الإنسانية في شعور تلك البقرة الأم الثكلى بالوحشة وقسوة القدر عليها ، وهي تبحث عن ولدها مستهينة بالأخطار المحدقة بها ، ومتعرضةً لنبال الصائدين وكلابهم الضارية التي تُلاحقها :

وتَسَمَّعَتْ رزَّ الأنيس فراعَها عن ظهر غيبٍ والأنيسُ سَقَامُها
فَعَدَتْ كلا الفرجَيْن تَحسِبُ أنّه مولى المَخَافَةِ خلفُها وأمامُها

(شرح القصائد السبع الطوال : ٥٦٥)

فهي تسمع صوت الإنسان الذي يحاول تطويقها ليصيدها بنباله وكلابه ، وهي تعدو لذلك مذعورة لا تعرف الطريق إلى نجاتها ، وتحسب الهلاك محيطاً بها من كل جانب ، من أمامها ومن خلفها : وهنا يبدأ الصراع المستميت بين البقرة الوحشية وكلاب الصائدين في مشهد يموج بالحياة والحركة والمعاناة ، فالبقرة أم ثكلى ، وفي تصوير استبسالها في الدفاع عن نفسها ومقاومة الكلاب المهاجمة مشاركة وجدانية تشف عن عاطفة الشاعر وإشفاقه عليها ، فقد أحاط تلك الصورة الرمزية للأمومة الثكلى في تصدّيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للأهوال والموت في مواجهة أعدائها ، بإطار وجداني من مشاعره الذاتية ، إذ هيّأ للبقرة المحاصرة سبيل النجاة ، وجعلها توقن بأنها هالكة لا محالة إذا لم تدافع بضراوة عن نفسها ، فراحت تبقر بقرونها الحادة بطون الكلاب التي تهاجمها حتى أردتها وتركتها صرعى مضرجة بدمائها ، وانتهى الصراع الدموي بفوزها ونجاتها .

أمّا الشمّاخ الغطفاني فقد كان أوصف الناس للحُمُر الوحشية ، وكان الحطيئة لذلك يعدّه أشعرَ غطفان وأشعر العرب (الأغاني دار : ١٩٦/٢) وينقل أبو الفرج عن ابن الكلبي قوله : « أُنشد الوليدُ بن عبد الملك شيئاً من شعر الشمّاخ في صفة الحمير فقال : ما أوصفه لها ! إني لأحسب أن أحد أبويه كان حمّاراً ![1] » (الأغاني : ١٦١/٩) .

وقول الوليد بن عبد الملك هذا يُشبه قول تورغنيف الأديب الروسي الكبير لصديقه تولستوي : فقد وقع نظر تولستوي وهو في صحبة تورغنيف على حصان كبير يرعى في أحد المروج ، فراح يصف لصديقه ما عسى أن يكون شعور الحصان ساعتئذ ، وأفاض تولستوي في الوصف إلى درجة رفعت تورغنيف ليقول له مُتعجباً : « إني لعلى يقين ياليونيكولافتش أنك أنت نفسك لا بُدَّ كنت ذات يوم حصاناً ! » .

فالشمّاخ في وصفه للحمر الوحشية ، وتولستوي في وصفه للحصان ، استطاعا أن يتقمّصا شخصية الحيوان ، وأجادا التعبير عن دخائل نفسه ، فأثارا الدهشة والإعجاب ، حتى ظن الوليد أن الشماخ نشأ في كنف أب كان حمّاراً ، فشب على الإلف بهذا الحيوان ومعرفة طبائعه.

---

(١) وقرأ الرافعي ، « كان حِماراً » فورث الشمّاخ عنه دقة معرفته بطباع الحمار وصفاته (تاريخ آداب العرب : ١٢٥/٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعاداته ، فكان وصفه للحُمر عن خبرة ومعاينة وتجربة طويلة موروثة ، وحتى حكم تورغنيف بأن قدرة تولستوي على تصوير أعماق الحصان ، من داخله ، تدل يقيناً على أن الأديب الروسي العظيم كان ذات يوم حصاناً ، لكي يستطيع وصف نفسية الحصان بتلك المعاناة الدقيقة التي أذهلت صديقه وجعلته يجمع بين الإنسان والحيوان في واحد !.

ـ ٥ ـ

وفي العصر الأموي يُطالعنا ذو الرمة شاعر الصحراء في عصره ، بل أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وكأنه يعشق كل ما فيها ، حتى حيوانها الأليف والوحشي ، وهو مغرم بوصف حيوانات الصحراء ذلك الوصف النفسي الداخلي ، ولا يكتفي برسمها رسماً ظاهرياً يقف فيه عند وصف جسمها وحركاتها ، وهو يبث فيها مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس ، وفي وصفه للثور الوحشي الذي داهمته كلاب الصيّادين وأحدقت به من كل جانب أحس الحيوان المحاصر بالخطر واشتد اضطرابه وقلقه ، وراح يعدو بكل قواه لِيُفلت من طوق محاصريه ، وينجو بالهرب منهم ، لو لم يراجعه شعور بعزته وكبريائه ويدفعه إلى الثبات والصمود :

حتى إذا دوّمت في الأرض راجَعَهُ كِبْرٌ ولو شاء نَجّى نفسَهُ الهربُ

فصمد يقاوم الكلاب ويُصارعها حتى صرعها جميعاً وترك أشلاءها الدامية فوق أرض المعركة !

لقد أثار ذو الرمة في نفس الثور الوحشي إحساسه بالكرامة وأنفته من الهزيمة وخوفه من الهرب وعاره ، والشاعر يخلع بذلك على الحيوان أحاسيسه الذاتية ومشاعره ووساوس نفسه ، حتى غدا الثور الوحشي في شعوره بالعزة والكرامة رمزاً للبدوي وكبريائه وأنفته من العار ، وإيثاره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مواجهة الموت على الهرب من المعركة ، وأصبح الحيوان الذي أعاره الشاعر عواطف الإنسان ومشاعره وأحاسيسه يمثل جزءاً من ذي الرمة نفسه ، وهذا يفسّر سرّ إبداعه في وصفه له وقال الدارسون لوصف الحيوان في ديوانه : « إنه حديث نفس قبل أن يكون حديث حس » (التطور والتجديد في الشعر الأموي شوقي ضيف : ٢٧٩) فقد شملت أوصافه لحمار الوحش تلك المشاركة الوجدانية بينه وبين الحيوان التي تركت في شعره تلك اللمسات الإنسانية التي تميّز بها ، والتي أمدّه بها إحساسه العميق بالحيوان وحبه للصحراء وكل ما فيها .

— ٦ —

ومع نهاية العصر الأموي وقيام الدولة العباسية سادت موجةٌ من الارهاب للقضاء على الأمويين وأنصارهم ، وعمد العباسيون إلى تصفية الأمويين في مجازر دموية لتوطيد دعائم ملكهم ، وبالغوا في القسوة والبطش لسحق الحركات المناوئة لهم ، وبسط سطوة الدولة الجديدة وتعميم هيبتها واحترامها ، وفي أمثال هذه الفترات من الاستبداد والكبت يحذر الإنسان من فلتات اللسان ، ويختفي وراء الحيوان ، ويُنطقه بما يخشى أن يُصرّح به ، وهنا يصبح الحيوان رمزاً للشخصية الإنسانية التي تتخذ منه قناعاً ، تخلُّصاً من المسؤولية والملاحقة ، وإيثاراً للسلامة والعافية ، وكتاب (كليلة ودمنة) برموزه الحيوانية العاقلة الناطقة شاهدٌ على ذلك ، فهو يقرّر الحقائق بألسنة الحيوان ، وقد نقله ابن المقفع إلى العربية خلال فترة الانقلاب السياسي والفكري والاجتماعي التي شهدت انهيار الحكم الأموي وقيام الحكم العباسي ، وفي الكتاب تعريضٌ بالسلطان وحملة على بطانته من الفاسدين والمنافقين وتصوير لعيوب المجتمع ، في تلك الفترة العصيبة من حكم المنصور ، الذي « كان لا يُبالي أن يحرس ملكه بهلاك غيره » كما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول المسعودي (التنبيه والإشراف : ٢٩٥ – ٢٩٦) وعندما كتب ابن المقفع كتاب الأمان لعمّ المنصور الثائر عليه ، عبد الله بن علي ، امتلأ المنصور غيظاً ، واستشعر الخطر من كتابات ابن المقفع ، فأوعز بقتله ! ويُعد كتاب كليلة ودمنة من أروع ما خلّفه الأدب الإنساني من قصص تشخّص عالم الإنسان بمنطق الحيوان لأسباب كثيرة ، منها ما أشرنا إليه قبل حين من اللجوء إلى الرمز في عهود الجور ، خوفاً وتقيّةً ، ومنها أسباب فنية خالصة لصياغة الأفكار بأسلوب الحكاية والتمثيل ، ومنها أسباب تعليمية لتقديم الحكم في حكايات مُشوّقة للناشئة ، ليستظهروها ويستفيدوا من عِبَرها ومغازيها ، وفي الأدب العربي قبل كليلة ودمنة شذرات من أحاديث وحكايات على ألسنة بعض الحيوانات ، وفي أمثال العرب نماذج منها ، وفي الشعر الجاهلي نماذج أخرى ، مثل ما نجده عند النابغة من حكاية ذات الصفا (يعني الحية) في رسالة الغفران (ص٢٨٨) أو ما نجده عند أمية بن أبي الصلت في ديوانه من حكاية (الغراب الذي خان صديقه الديك) وخلّفه رهينة في حانة خمّار ، ومثل ما نقع عليه في الشعر القديم من مشاهدة حوارية ، بين الشعراء والحيوانات التي يصفونها ، كهذا الحوار الذي يدور بين النجاشي الشاعر وذئب عرض له في سفرٍ له ، فدعاه إلى مؤاكلته ، فقال الذئب : هداك الله ، لقد دعوتني إلى شيء ولم تفعله السباعُ قبلي من مؤاكلة بني آدم ، وهو شيء لا يمكنني قبوله ، ولا أستطيع أن أفعله ، ولكن إن كان في مائك فضلٌ عما تحتاج إليه فاسقني ، فدلّه على ما بقي في دلوه من ماء ، فشرب الذئب منه ثم راح يعوي والذئاب الكثيرة الأخرى القريبة تجاوبه بعوائها ..

وماءٍ كَلَوْن الغِسْلِ قد عاد آجناً قليلٌ به الأصواتُ في بَلَدٍ مَحْلِ
وجدتُ عليه الذئب يعوي كأنه خليعٌ خلا من كُلّ مالٍ ومن أهْلِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقلتُ له : يا ذئبُ هل لك في فتى ... يُواسِي بلا مَنٍّ عليكَ ولا بُخْلِ
فقال : هداكَ اللّهُ للرُشد ! إنّما ... دعوتَ لِما لم يأته سَبُعٌ قبلي
فلستُ بآتيهِ ولا أستطيعُه ... ولاكِ اسقني إن كان ماؤكَ ذا فضلِ
فقلتُ : عليك الحوض إني تركتُه ... وفي صفْوِه فضلُ القلوص من السَّجْلِ
فطرَّب يستعوي ذئاباً كثيرةً ... وعدَّيتُ ، كُلٌّ مِن هواهُ على شُغْلِ

(أمالي المرتضى : ٢/٢١١)

فمنطق الحيوان عرفه العرب قبل أن يقرؤوا كليلة ودمنة ، كما تقول بحق الدكتورة بنت الشاطئ في تقديمها لرسالة الصاهل والشاحج للمعري (ص٣٩) الذي عمد فيها إلى تشخيص فني لعالم الإنسان في منطق الحيوان (ص٤٢) والحوار في هذه الرسالة العلائية الفريدة لا يقتصر على الصاهل (الفرس) والشاحج (البغل) بل هناك حيوانات أخرى تتدخل في الحوار الدائر ، فُرادى وجماعات ، كالضبع والفاختة والجمل والثعلب ، « وعلى هذا يعتبر الكتاب – كما يقول الدكتور أمجد الطرابلسي في تعريفه برسالة الصاهل والشاحج : فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : ص١٠ – حلقة في سلسلة ما صُنّف في الأدب العربي نثراً وشعراً على ألسن الحيوان » .

غير أن منطق الحيوان الذي تُقدمه لنا بعض الأمثال والحكايات ومشاهد الحوار التي أشرنا هنا إليها ، والذي نجده في سلسلة الكتب المصنفة على ألسن الحيوان ، والتي تبتدئ بكتاب كليلة ودمنة وما تلاه ، لا تصف لنا الحيوان وصفاً داخلياً باطنياً ، وتكتفي من (أنسنة) الحيوان بجعله ينطق بكلام واهي الصلة بنفسيته وطباعه وميوله ، فيجيء الحوار الدائر بين الإنسان والحيوان ، وكأنه حوار بين الإنسان ونفسه ، أو كأنه لو من المناجاة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا دخل للحيوان فيها ، فكيف يكون مثل هذا الحوار وسيلة لتحليل نفسية الحيوان وتحديد ذكائه وتفسير طباعه ، وكيف يمكننا أن نجد فيه لوناً من المشاركة الوجدانية بين الإنسان والحيوان !.

هذا ما نبحث عنه في مقالتنا الحيوان في صوره الإنسانية وقد قدّمنا من قبل ما وجدناه منه ، وهو ما نجده أيضاً في قول ابن هرمة (ت ١٧٠هـ) في مدح قوم كرام ، تعوّد كلبهم رؤية الضيفان الوافدين عليهم ، فلا ينبحهم ، بل هو يرحب بهم ويحبهم ، ويكاد من حبه إياهم أن ينطق بترحيبه ، لو لم يكن حيواناً أعجم :

يكادُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبلاً يُكلّمه من حُبِّه وهو أعجمُ

(حماسة أبي تمام : ١٥٨١/٤)

فهنا يتسلّل الشاعر إلى داخل الحيوان ، ويصف عواطفه ومشاعره نحو الضيف ، ويصف فرحه باستقباله ، ويصوّر ترحيبه به ، ويكاد يُنطقه بكلمات التأهيل والترحيب تعبيراً عن حبه ، كالإنسان الناطق لولا أنه حيوانٌ أعجم !

– ٧ –

وعندما يصبح الحيوان صورة رمزية للإنسان ، أو (معادلاً موضوعياً) له تنزاح الفروق بين الحيوان والإنسان ، ويغدو الحيوان إنساناً والإنسان حيواناً ، على النحو الذي نجده عند البحتري في وصفه للذئب عندما تصدى له في بعض أسفاره في الصحراء ، في المراحل الأولى من حياته : فقد كان الذئب الذي أنهكه الجوع ولم يُبق فيه غير العظم والجلد ، صورة للشاعر في وحشته وجوعه وبحثه الدائب عن لُقمة العيش ، وتشبثه بالحياة وحب البقاء ، وكان الشاعر ذئباً به من شدة الجوع ما بالذئب الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هاجمه ، وكان الجوع لدى الذئبين يزيد في ضراوتهما وصراعهما المستميت على الحياة :

طواهُ الطوى حتى استمرَّ مَريرُهُ فما فيه إلا العظم والروحُ والجلدُ
سما لي وبي من شدة الجوع ما به ببيداء لم تُعرَفْ بها عيشةٌ رَغْدُ
كلانا بها ذئب يُحَدِّثُ نفسَه بصاحبه والجِدُّ يتعسُهُ الجَدُّ

(ديوان البحتري : ٧٤٣/٢)

فهو إذاً صراعٌ مستميت بين ذئبين جائعين ، في بيداء قاحلة جرداء ، وقد حدّث كل منهما نفسه بأن يفتك بصاحبه ليتبلّغ بِمُضغة من لحمه تهدهد سَوْرة جوعه ، وجَدَّ كل منهما في مواجهة خصمه للفوز بما يُحقق أُمنيته ، ولكنّ الجِد إذا لم يواكبه الحظ أتعس الجادَّ ولم يُجْده نفعاً ، هذا ما كان يدور في داخل كل ذئب منهما : وهذا (المونولوج) الداخلي – أو المناجاة النفسية في باطن كل منهما – يكشف لنا كيف تسلّل الشاعر إلى داخل الحيوان لينقل لنا حديثه مع نفسه ، وهو صورة مماثلة من حديث البحتري مع نفسه أيضاً في تلك الليلة العصيبة التي انتهت بمصرع الذئب ونجاة الشاعر في معركته الضارية مع الحيوان الجائع المستميت في البحث عن فريسة يلتهمها ليسدّ جوعه ويسكّن قَرَمَه ويضمن بقاءه .

وللحديث عن الإنسان والحيوان في البادية وجهٌ آخر ، يناقض ما شهدنا من العداوة والاقتتال بينهما حتى يقضي أحدهما على الآخر ، وهو وجه يحدّثنا عن علاقات الألفة والحب المتبادل بين الإنسان والحيوان في البوادي ، إذ تقوم بين البدوي وجمله في الصحراء علاقة إنسانية حميمة ، تحدّث عنها بإعجاب واحدٌ من الأطباء الفرنسيين الذين كانوا في جيش محمد علي المُرسل إلى جيزان ، واسمه تاميزيه ، فقد اتضح له أن شبه جزيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العرب من بلدان العالم التي تقوم فيها بين الإنسان والحيوان تلك العلاقات الأليفة :

« فالجمل هناك يلقى معاملة الصديق الحقيقي ، يتحدّث إليه البدوي في الطريق عن أجداده ، ويقطع له عهوداً ، ويُنشد له أناشيد الحب والقتال ، والجمل يُصغي إليه بانتباه كُلّي ، وللتعبير عن اللذة التي يشعر بها يضغط على شدقيه ، ويصرُّ أسنانه ، ويُدير رأسه نحو الحادي ليعيره انتباهاً أكثر ، ثم يبدو – وقد أُخذ بهذه الألحان البدوية – أنه قد نسي حِمْلَهُ [الثقيل] ، فيجتاز مسافات لا يُصدقها العقل ، ينقل أخبارَها السلفُ للخلف » .

(اكتشاف جزيرة العرب : لجاكلين بيرين – ترجمة قدري القلعجي : ٢٥٩)

– ٨ –

وقبل أن نغادر الكلام على الحيوان في العصر العباسي لا بد من وقفة لتفسير تلك الظاهرة التي استفاضت في القرن الهجري الرابع ، والتي تتمثل في اهتمام الشعراء فيه بتأبين الحيوان ورثائه ، وتعددت محاولات الباحثين لتعليل هذه الظاهرة ، وقد هالهم أن ينفق حمار بأصبهان لأبي عيسى المنجم ، فيوعز الوزير الصاحب بن عباد إلى الشعراء أن يتباروا في رثائه وتعزية صاحبه المنكوب بموته ، وقد حفظت لنا اليتيمة (٣/٢١٤ – ٢٢٩) عدداً من تلك البرذونيات التي أقام فيها الشعراء الحداد والمناحات على برذون أبي عيسى ، كقول أبي القاسم بن أبي العلاء (اليتيمة : ٣/٢١٨) :

ففي كل إصطبل أنينٌ وزفرة تَرَدَّدُ فيه بُكرةً وأصيلاً
ولو وَفَتِ الجُرْدُ العتاقُ حقوقَهُ لَما رَجَّعَتْ حتى الممات صهيلا
ولو أنصفتهُ الخيلُ ما ذُقنَ بعدَهُ شعيراً ولا تبناً ومتنَ غليلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقدتَ أبا عيسى بِطِرْفكَ مركباً جليلاً وخِلاً ما علمت نبيلا

وكقول أبي دلف الخَزرجي من أرجوزة طويلة (اليتيمة : ٣/٢٢٤) تحدّث فيها عن أخلاق الفقيد الرضيّة وطباعه وتهذيبه :

قد كملت في طبعه الآدابُ وهُذِّبتْ أخلاقُه العذَابُ
ذو نَسَبٍ تحسده الأنسابُ ومَيْعَة ينزو بها الشَبابُ
كأنّما غُرّتُه شهابُ وقد غدا الاصطبل والجنابُ
يبكيكَ والسائسُ والبّوابُ والسَّرْج واللجامُ والرِّكابُ

وفي هذه المراثي الحيوانية لمسات إنسانية تجعل من البرذون صديقاً (خِلاً) لصاحبه في حياته ، وتصف طباعه المهذّبة وأخلاقه العذبة التي كان يتصف بها ، وتتحدث عن عراقة نسبه ونشاط شبابه وإشراق غرته ، ولكن الشعراء قد غلّفوا تلك اللمسات الإنسانية المؤثرة بروح من السخر والدعابة تفضح غايتهم من رثائهم ، فهم يهزلون ويتماجنون ، ومن هنا فُسّرت الظاهرة كلها تفسيراً يربط بين تيار المجون في العصر العباسي – التيّار الفكاهي الهازل – وهذا اللون من الرثاء ، أما الدكتور طه حسين فيعد البرذونيات من قبيل استفاضة الشعر في ذلك العصر ، وكثرته وانحداره وقوله في كل غرض . (تجديد ذكرى أبي العلاء – المقدمة) . وقد شُهر القاسم بن يوسف بأشعاره في رثاء الحيوان ، فله قصيدة في (٤٧ بيتاً) في رثاء عنزٍ له سوداء ويعدّه الصولي أشعر المحدثين في هذا اللون من الرثاء ويقول إنه « أشعر في فنّه الذي أعجبه من مراثي البهائم من جميع المحدثين ، حتى إنه لرأسٌ فيه مُتقدِّمٌ جميع من نحاه » (الأوراق : أخبار الشعراء : ١٦٤ – ١٦٦) ويروي له القصائد الطويلة في رثاء الهرة (ثلاثون بيتاً : ص١٧٢ – ١٧٣) ورثاء الشاه رُخ (وهو جنس طير ، في ثمانية وثلاثين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيتاً : ص١٧٦ – ١٧٨) ورثاء القُمْري (في تسعة وثلاثين بيتاً : ص١٩٣ – ١٩٥) . ولأبي الفرج الأصبهاني – صاحب الأغاني – قصيدة مشهورة في رثاء ديك ، تُعد من أجمل ما قيل في مراثي الحيوان (نجدها في نهاية الأرب : ١٠/٢٣٠ – ٢٣١) وصف فيها فجيعته بديك كان يألف قُربه ، ويُعجب بشمائله وجمال مظهره وكمال حسنه وبديع وشيه ونعومة صوته ونغمة موسيقاه :

لهفي عليكَ أبا النذير لو أنَّهُ دفعَ المنايا عنكَ لَهْفُ شفيقِ
وعلى شمائِلكَ اللواتي ما نَمَتْ حتى ذَوَتْ من بعدِ حُسْنِ سُمُوقِ
.....
وكُسيتَ كالطاووسِ ريشاً لامعاً مُتلألئاً ذا رونق وبَريقِ
وخَطَرْتَ مُلتحفاً بِبُرْدٍ حبَّرَتْ منه بديعَ الوشْيِ كفُّ أنيقِ
وكأنَّ سالِفَتَيْكَ تِبْرٌ سائلٌ وعلى المفارِقِ منكَ تاجُ عقيقِ
وكأنّ مجرى الصوتِ منك إذا نَبَتْ وجَفَتْ عن الأسماعِ بَحُّ حُلُوقِ
نايٌ دقيقٌ ناعمٌ قُرِنَتْ بهِ نَغَمٌ مؤلَّفةٌ من الموسيقي
أبكي إذا أبصرتُ رَبْعَك مُوحِشاً بِتَحَنُّنٍ وتأسُّف وشهيقِ

وفي حزن أبي الفرج على ديكه وحسن شمائله وبُكائه من وحشته إليه وحنينه إلى ذكراه وأسفه على فقده لمسات إنسانية ووجدانية تشف عن صدق العاطفة والمشاعر التي كان أبو الفرج يكنها في نفسه للديك الراحل .

ويمكننا أن نعدَّ قصيدة أبي بكر بن العلاف (٢١٨ – ٣١٨هـ) الدالية في رثاء الهر أشهر وأطول قصيدة في رثاء الحيوان وصلت إلينا من العصر العباسي ، وقد أوردها صاعد البغدادي في كتاب الفصوص في (٧٣ بيتاً) وقال ابن خلّكان « هي من أحسن الشعر وأبدعه ، وعددها (٦٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيتاً) وطولها يمنع من الاتيان بجميعها ، فنأتي بمحاسنها - واختار منها (٤٣) بيتاً عدها زبدة القصيدة - » وهي الأبيات التي نجدها عند الدميري (حياة الحيوان : ٣٨٦/٢) أما النويري فيورد منها (٥٢ بيتاً) (نهاية الأرب : ٢٩٣/٩) ويورد الصفدي (٤٢ بيتاً) (نكت الهميان : ١٣٩ - ١٤٢) ويُقدّم لها بقوله :

« كان لأبي بكر هرّ يألفُ به ، وكان يدخل أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكوه وذبحوه ، فرثاه بالقصيدة التي اشتهرت ! وقد قيل إنه رثى بها عبد الله بن المعتز ، وخشي من الإمام المقتدر أن يتظاهر بها ، لأنه هو الذي قتله ، فنسبها إلى الهر ، وعرّض به في أبيات منها لِصُحبة كانت بينهما؛ وقيل إنما كنى بالهر عن المُحسّن بن الفرات أيام محنته ، لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه ؛ وقيل إن جارية لعلي بن عيسى هويت غلاماً لأبي بكر ففطن بهما فقتلا جميعاً ، وسُلخا وحُشيت جلودهما تبناً ، فقال مولاه أبو بكر يرثيه :

يا هرُّ فارقتنا ولم تَعُدِ ... وكنتَ فينا بمنزلِ الولدِ إلخ... »

وهكذا نقع على تفسير جديد لظاهرة رثاء الحيوان في العصر العباسي ، وهو تفسير رمزي تُقدّمه دالية ابن العلاف هذه التي أمعن الشاعر في إخفاء رمزه حتى غُمَّ على القُراء أمرُه ، وقال الصفدي بعد أن أورد من القصيدة ما أورد : « قلتُ : وأنا شديد التعجب ممّن يزعم أن هذه القصيدة رثى بها غير هرّ ! » وفي مقالة للدكتور عبد الكريم اليافي عن (الرمز في الشعر العربي) تصدى فيها لدالية ابن العلاف ورأى أنه يصعب القَطع في صفتها الرمزية ، إذ « لا يظهر فيها إلا أوصاف الهر » (دراسات فنية في الأدب العربي : ٢٥١ - ٢٥٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

والحقّ أننا لا نُحس في الدالية بذلك الحزن العميق الصادق على هر كان للشاعر بمنزلة ولده ، وقد رأى جيرانه يمسكون به ليخنقوه ويذبحوه ويحشوا جلده تبناً ، انتقاماً لفراخهم التي كان الهر يُغير عليها في بُرجهم ويلتهمها ، وقد غطى الشاعر جفاف عاطفته وفقر مشاعره بإيراد حكم كثيرة كلها لومٌ وتأنيب للهرّ على بغيه وعدوانه وشرهه الذي أودى بحياته :

أَلم تخف وثبةَ الزمانِ كما ... وثبتَ في البُرج وثبةَ الأسدِ
عاقبةُ البغي لا تنام وإنْ ... تأخرت مُدةً من المُدَدِ
أردتَ أن تأكل الفراخ ولا ... يأكلُك الدهرُ أكلَ مُضطهدِ
لا بارك اللهُ في الطعامِ إذا ... كان هلاكُ النفوسِ في المِعَدِ
كم أكلةٍ خامرت حشا شَرِه ... وأخرجت روحَهُ منَ الجَسَدِ
ما كان أغناكَ عن تَسَوُّرِكَ الـ ... ـبُرْجَ ولو كانَ جَنّةَ الخُلُدِ
قد كنتَ في نعمةٍ وفي رغدٍ ... من العزيز المهيمنِ الصَّمَدِ
تأكلُ من فأر بيتنا رغداً ... إلخ.....

ومع ذلك نالت هرّية ابن العلاف إعجاب معاصريه ، وعارضها ابن العميد بقصيدة لامية نجد في اليتيمة أبياتاً منها (اليتيمة : ١٧٩/٣) ، وعدّها ابن خلكان كما رأينا من أحسن الشعر وأبدعه !

— ٩ —

لقد فاز الحيوان في العصر العباسي بدراسات متفاوتة الحظ من الصبغة العلمية ، وتحدّث أصحابها عن طباع الحيوان وخصائصه ، على أساس الملاحظة والاختبار والمعاينة ، كالذي يُطالعنا به (كتاب الحيوان) للجاحظ ، وإخوان الصفاء في بعض رسائلهم ، والتوحيدي في بعض ليالي (الامتاع والمؤانسة) ، وقد حاول التوحيدي تحديد الصلة بين الحيوان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والإنسان بقوله : « إنّ أخلاق الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ، وذلك أن الإنسان صفو الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوانُ كَدَرُ النوع الذي هو الإنسان » وبسبب هذه العلاقة الأصيلة بين الحيوان والإنسان رأى التوحيدي أن الإنسان يجمع من خصال الحيوان ألواناً ، وصار يستكثر منها بالفطرة والفكر والعقل ، وبمزية العقل فضل الإنسان جميع الحيوان وصار يُسخّره في أعماله ومنافعه وحاجاته (الامتاع والمؤانسة : ١/١٤٣ – ١٤٤) وبعد العصر العباسي وما تلاه من عصور الدول المتتابعة أصبح الاهتمام بموضوع الحيوان كبيراً في الأدب الشعبي وأصبحت العلاقة بين الحيوان والإنسان تخضع لعوامل التسلية والتشويق والوعظ في القصص الحيواني الذي يتخذ الحيوان في بعضه صورة الإنسان عن طريق التشخيص فإذا هو ينطق بلسانه ، ويُبين عما في داخله من أفكار ورغبات ، ومحدّثه يفهم عنه ويحاوره ويكلّمه ، أو يتخذ الإنسانُ في بعضه الآخر صورة الحيوان عن طريق السحر والتعاويذ والقوى الخارقة ، وهنا يصمت المسحور ويقوم الحوار بين الناس حوله عنه ، وهم يعلمون أنه إنسان حوّله السحر إلى حيوان ، وفي كتاب (ألف ليلة وليلة) نماذج كثيرة لهذا القصص الحيواني الشعبي الذي تختلط فيه الفواصل بين الحيوان والإنسان في الصور والمعاملات ، والذي يرفع الخيال فيه الحواجز بين عالم الإنسان وعالم الحيوان ، ممّا يفتن عقول العامة ، ويعدّ الباحثون قصة (الحمار والثور مع صاحب الزرع) خير ما يمثل موضوع الحيوان في (ألف ليلة وليلة) فقد أراد الحمار أن ينقذ الثور من شقائه فيما يلقاه طوال النهار من تعب الحرث ، فإذا به يحلُّ محلَّه في تحمل الشقاء ، وعادت الحيلة التي علّمها للثور بالشرّ على مُدَبّرها ، وقد سمع صاحب الزرع كلام الحمار والثور وفهم الحيلة التي دبّرها الحمار في نصحه للثور بأن يتمارض ويتخاذل ويمتنع عن تناول عليقه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأراح الزارع ثوره وساق حماره إلى حراثة الأرض بدلاً عنه ، إلى آخر القصة الطويلة ، التي تبرز سِمَتُها الحيوانية الإنسانية المشتركة في تآمر الحيوان على الإنسان وتدبيره الحيلة للتغلّب عليه ، وإحباط الإنسان للمؤامرة بسبب فهمه لغة الحيوان (ألف ليلة وليلة للدكتورة سُهير القلماوي : ٢٠٣ – ٢٠٤) وفهم المزارع للغة الحيوان هنا لا يعني أن الرجل قد عُلِّم منطق الحيوان ، مثل سيدنا سليمان ، بل يعني أن الرجل على وعي بطباع الحيوان وأخلاقه ، وقد تسلّل إلى باطنه ليزداد معرفة بدخائل الحيوان ونوازعه ، ويفهم دوافع رغباته وتصرّفاته ، ويُحبط تآمره عليه .

وفي (حياة الحيوان) للدميري (– ٨٠٨هـ) تصوير لطبائع الحيوان وخصائصه تختلط فيه الحقائق العلمية التجريبية بالخرافات والأساطير والمعتقدات الشعبية ، وتُسند كثير من الأخبار المروية فيه إلى الأئمة الكبار الذين لا يعقل أن تصدر عنهم ، وهذا نموذج يُغني عن ذكر غيره : « روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ البغال كانت تتناسل ، وكانت من أسرع الدواب في نقل الحطب لِنار إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، فدعا عليها فقطع الله نَسلها ! » (حياة الحيوان للدميري : ١/١٤٢) .

– ١٠ –

والحديث عن (الحيوان إنساناً) في أدبنا العربي الحديث : شعره ونثره ، حديث يطول إذ لا يكاد يخلو ديوان من دواوين الشعراء الكبار في عصرنا من قصائد عن الحيوان (تؤنسنه) وتمنحه الشخصية الإنسانية الناطقة عما في باطنه من أفكار وميول ورغبات ، أو تتخذ منه رمزاً لما لا تستطيع الإفصاح عنه بحرية وانطلاق ، أو تُدير معه حواراً يُبرز تعدّد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجهات النظر ، أو تجعل من الحديث عنه حكاية تعليمية فيها الحكمة والعظة والاعتبار لمن يرويها ، وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج التي تمثل هذه الألوان من (أنسنة) الحيوان :

١ - فهذا أمير الشعراء شوقي يتخذ من (الكنار) رمزاً للمرأة في قضية السفور والحجاب التي كانت تشغل المجتمع المصري في أيامه ، ولنُصغ إليه وهو يخاطب الكنار الحبيس في قفصه ، ويتوجّع له : (الشوقيات : ١٧٦/١)

صدّاحُ يا ملكَ الكنا ... رِ ويا أميرَ البُلبُلِ

....

يا ليتَ شعري يا أسيـ ... ـرُ شجٍ فؤادُكَ أم خلي
بالرغم مني ما تُعا ... لِجُ في النحاس المُقفلِ
والقيدُ لو كانَ الجُمـا ... نَ مُنظّماً لم يُحْمَلِ
صبراً لِما تشقى به ... أو ما بدا لكَ فافعل إلخ...

وقد لجأ شوقي إلى الرمز لأنه لم يكن يملك حرية التعبير عن رأيه بصراحة يوم نظم القصيدة ، وأغلال القصر تكبّله ، فلما تخلّص من تلك الأغلال جأرَ بالدعوة إلى السفور وحرية المرأة المصرية : (الشوقيات : ٢٠٨/٢ - ٢١١)

قُل للرجال طغى الأسيرْ ... طيرُ الحجال متى يطيرْ
أوهى جناحيه الحديـ ... ـدُ وجزّ ساقيه الحرير
ذهب الحجابُ بصبره ... وأطال حيرته السفور
حريةٌ خُلق الإنا ... ث لها كما خُلق الذكور إلخ...

ولا بد من الإشارة إلى حكايات الحيوان التعليمية التي نهج شوقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها نهج لافونتين في خرافاته عن الحيوان (Les Fables) . والناشئة في كل قطر عربي يحفظون الكثير من حكايات شوقي تلك ، ويعدّها المربون ذخيرة ثقافية تعين على تكوين الناشئة وتزويدهم بالحكمة بذلك الأسلوب الرمزي الممتع المُشوّق لهم .

٢ – وهذا ولي الدين يكن يمنح (الديك) لمسة إنسانية فيجعله (شاعر الفجر) الذي يهيج بصياحه الأطيار عند الصباح ، وهو واقف على ربوة « مستقبل دولتَه بالصياح » وهو يختال تيهاً في حلة ريشه ، ويصفّق بجناحيه ، والعُرف على رأسه مثل التاج الملكي ، أحمر كجمرة النار التي تؤجج في يد مُقتبسها عند اشتداد هبوب الرياح :

ما هاجَ في الأطيار هذا النُواحْ ... روضٌ أريضٌ ونميرٌ قراحْ
تبكي على أعقاب ملك الدجى ... أم هلّلتْ من فرحٍ بالصباحْ
وشاعرُ الفجر على ربوةٍ ... مستقبلٌ دولته بالصِّياحْ
يختالُ في حُلّةِ أرياشهِ ... يضرب تيهاً بالجناح الجناحْ
يضطرب العُرفُ على رأسه ... كتاج ملكٍ في مجالِ الكفاحْ
أحمر كالجمرةِ يسعى بها ... مقتبس عند اشتداد الرياحْ

وفي ديوانه مرثية لكلبه (جوجو) تصف حزن الأسرة كلها عليه ، ويتعهد الشاعر بموالاة البكاء عليه حتى تجف دموعه ، بلهجة صادقة وعاطفة جياشة :

ترحَّلَ (جوجو) فلا يرجعُ ... وعزَّ العزاءُ فما نصنعُ
سأبكي عليه إلى أن تجفَّ ... بعينيَ من سكبها الأدمعُ إلخ...

(ديوان ولي الدين يكن : ١٠٥ و١١٩)

٣ – ومثل هذه النزعة الإنسانية الحانية على الحيوان (والكلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاصـة) نجدها عند عباس محمود العقاد في رثائه المؤثر الحزين لكلبه (بيجو) ، وقد تفجّع عليه تفجُّع الصديق على الصديق : (ديوان أعاصير مغرب : مع العقاد لشوقي ضيف : ١٧٠)

حُزناً على (بيجو) تفيضُ الدُّموعْ حُزناً على (بيجو) تثورُ الضلوعْ
حُـزنـاً عـليـهِ جهـدَ مـا أستطيعْ وإن حُـزنـاً بعـد ذاك الولوعْ
واللهِ – يـا بيجـو – لحزنٌ وجيعْ

ويرى شـوقي ضيف (مع العقـاد : ١٤٣ و١٥٨) أن العقـاد « يتعاطف مع عالم الطير تعاطف الحي مع الحي ، تعاطفاً يمتزج بالحنان ، على نحو ما نرى في قصيدته (الكروان) وهي من فرائد قصائده التي نظمها في هذا الطير الشادي ليلاً بأغانيه وترنيماته الشجية :

هل يسمعون سوى صدى الكروان صـوتـاً يرفرف في الهزيع الثـاني

ويتجـلى في القصيدة امتزاج العقـاد بروح الكروان ، وهو يخاطبـه بقوله :

أنـا لا أراكَ وطـالمـا طرق النهى وحيٌ ولم تظـفـر بـه عينـانِ
أنـا في جنـاحكَ حيث غابَ مع الدُّجى وإن استـقـرَّ عـلى الثرى جُثماني
أنا في لسانكَ حيث أطلقه الهوى مرحاً وإن غلبَ السرورُ لسـاني
أنا في ضميركَ حيث باح فما أرى سـرّاً يُغيبُـهُ ضـمـيرُ زمـاني
أنا منكَ في القلب الصغير مُساجلٌ خفـق الربيـع بـذلك الخفـقـانِ
أنا منكَ في العين التي تهبُ الكرى وتضـنُّ بـالصَحَـواتِ والأشجـانِ

(فاتحة قصائد ديوانه « هدية الكروان » : مع العقاد : ١٥٨)

وفي قصيدة (العقاب الهرم) يصور الشـاعر عقاباً هرماً استبد به ضعف الشيخوخة فبات لا يستطيع نُهوضاً ، وعجز جناحاه عن حمله ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأصبح يأسى على نفسه ، وهو مكبٌّ على الثرى ، يُغمض عينيه حيناً ، وكأنه يرى الموت منقضاً عليه ، أو كأنه يحلم بصولة ماضيه ، وإذا أدفأته الشمس أغفى وربما توهم أنها صيد ميسور يسد بمضغة منه جوعه ، كما كان يتوهمها وهو عقاب صغير (هيثم) ، ولا يكتم الشاعر عطفه وشفقته على مأساته :

يَهُمُّ ويُعييه النهوضُ فيجثمُ ... ويعزم إلا ريثُه ليس يعزم
ويثقله حمل الجناحين بعدما ... أقلاّه وهو الكاسرُ المُتقحِّمُ
ويغمض أحياناً فهل أبصر الردى ... مُقضٌّا عليه أم بماضيه يحلم
إذا أدفأته الشمسُ أغفى وربّما ... توهّمها صيداً له وهو هيثم
لعينيكَ يا شيخ الطيور مهابةٌ ... يفرُّ بغاث الطير عنها ويهزم
وما عجزت عنك العداةُ وإنما ... لكل شباب هيبةٌ حين يهرم

والتصوير النفسي لهذا العقاب الشيخ الذي حطمت قواه السنون ينقل ما في نفس الشاعر من تعاطف مع الحيوان البائس ، فهو يعزيه عن شيخوخته وعجزه بأن مهابته التي لا تزال له تجعل بغاث الطير تخاف سطوته وتخشى بطشه (مع العقاد : ١٤٣ – ١٤٤) .

٤ – وقصيدة (العقاب الهرم) تقودنا إلى قصيدة مماثلة لعمر أبي ريشة عنوانها (نسر) وهو نسر جريح ، أشلاء نسر ، أوْهى الضعف مخلبيه ، وأدمى المقدور منكبيه ، فتناثر ريشه ، وهوى من الذرا التي كان يحلّق فيها ، ويُقيم وكره المنيع ، إلى السفوح الدانية ، وقد تكسّرت أجنحته وانطوت ، وانهارت مطامحه ، وأصبحت عصائب الطير التي تألف السفوح تحوم من حول النسر العاجز ، وتنفّره وتؤذيه ، وهي ترى وهن مخلبيه وجراح منكبيه ، وما تبقى له من وقار موروث عن أجداده النسور من قديم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدهور : (من عمر أبو ريشه – شعر : ١٩٣٠ – ١٩٦) .

أصبح السفحُ ملعباً للنسورِ فاغضبي يا ذُرا الجبال وثوري

....

لملمي يا ذرا الجبال بقايا النْـ ـسر وارمي بها صدور العُصور
إنه لم يعد يُكحّل جفن النْـ ـجم تيهاً بريشه المنشور
هجرَ الوكر ذاهلاً وعلى عَيْـ ـنيهِ شيءٌ من الوداع الأخيرِ
هبط السفحَ طاوياً من جناحيـ ـهِ على كُلِّ مطمحٍ مَقبورِ
فتبارَتْ عصائب الطير ما بَيْـ ـنَ شَرُود من الأذى ونُفُورِ
لا تطيري جوّابةَ السفح فالنّسـ ـرِ إذا ما خبرتِهِ لم تطيري
نَسَل الوهنُ مخلبيه وأدمتْ منكبيه عواصفُ المقدور
والوقار الذي يشيعُ عليه فضلةُ الإرث من سحيق الدهور

وفي البيت الأخير يلتقي عمر أبو ريشة بالعقاد في تصوير (مهابة العُقاب) و(وقار النسر) على ميعاد ، ولكن أبا ريشة يُتابع وصف نسره العجوز : فقد وقف النسر المحطم البائس جائعاً يتلوى فوق أشلاء جيفة ليسدّ جوعه ، وعجاف البغاث تدفعه باستخفاف واستهانة لتفوز لنفسها بتلك الأشلاء ، فجن جنونه ، وثارت كبرياؤه ، وترك لها طعامه ، ومضى يسحب جاهداً أنقاض هيكله المتداعي ، متحاملاً على نفسه ، عائداً إلى الذروة التي كانت تشهد تحليقه ، وهوى على وكره فيها جُثّةً هامدة !

وقف النسر جائعاً يتلوّى فوق شِلْوٍ على الرمال نثيرِ
وعجافُ البُغاث تدفعه بالـ ـمخلبِ الغضّ والجناح القصيرِ
فسرت فيه رعشةٌ من جُنون الـ ـكِبر واهتزّ هزّة المقرورِ
ومضى ساحباً على الأفق الأغـ ـبَسِ أنقاضَ هيكلٍ منخورِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهوى جُثّةً على الذورة الشمْـ ـماءِ في حضنِ وكره المهجورِ

ويختم أبو ريشة قصيدته ببيت يكشف عن الرمز الذي يغلّف صورة النسر المُحطّم الجريح : فقد كنى الشاعر بذلك النسر عن نفسه ، وانهيار طموحه وانحداره من القمة التي تليق بعبقريته وموهبته ، إلى السفوح الذليلة التي يلقى فيها الاستخفاف والاستهانة من الصغار ، وهو صابر على هدر كرامته وتحطيم كبريائه ، فيسأل النسر العائد إلى الذروة ، ليموت في وكره فيها ، وهو في الحقيقة يسأل نفسه ، وفي أعماقه موجة عارمة من الحزن على وضعه المُهين :

أيها النسر هل أعودُ كما عُدْ تَ أم السفحُ قد أمات شُعوري !

فالنسر هنا هو الحيوان إنساناً ، هو الشاعر نفسه الذي يثور على رضاه بالحياة في السفح ، وهو جدير بأن يحلّق في القمم ، وتؤهله موهبته للحياة في الذرا الشُمّ التي لا تخفق فيها غير أجنحة كبار الموهوبين ، ولم يكشف الشاعر عن رمزية القصيدة إلا في خاتمتها لتخلّف لمسته الإنسانية أثرها في وجدان القارئ : ففي تصوير النسر خلجات نفس ونبضات قلب ومشاعر كبرياء وإحباط ، رسمها أبو ريشة في إطار من الخيال والظلال والألوان ، بطريقته الفنية التصويرية وأسلوبه الرمزي ورؤيته الذاتية المتدفقة بغنى عاطفته وحرارة انفعاله ووقدة إحساسه وجموح خياله وجدّة تعبيره .

٥ – وتعبير الشعراء في الأدب المعاصر عن أنفسهم وتجاربهم بصور رمزية يستعيرونها من عالم الحيوان (ومن عالم الطير خاصة) ظاهرة نقع على نماذج لها في دواوينهم ، ونكتفي بثلاثة شواهد من شعر ثلاثة من الشعراء أولهم خير الدين الزركلي في اتخاذه (عصفورة النيربين) وسيلة لنقل حنينه الذي يذيب شغاف قلبه إلى وطنه وهو مبعد عنه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عصفورة النيربينِ غنّي واروي حديث الأنين عنّي
أنا المعنى وما المُعنّى غير حنين أذاب مني
شفاف قلبي وحسن ظني

(الشعر الحديث في الإقليم السوري : ١٨٠)

وثانيهم شفيق جبري في مقارنته نفسه ، وهو في قبضة همومه وأغلال شجونه ، بـ (حمام الزيزفون) الحرّ الطليق السراح : (أنا والشعر : ٣٥)

شتّانَ ما قلبي وقلـ بُك يا حمامَ الزيزفونِ
أنت الطليق فما تزا ل من السهول إلى الحُزونَ
وأنا المُبرَّح بالسلا سل مثل تبريح السجين
وتقيكَ أطرافُ الجبا ل أذى النبال فمن يقيني
تطوي السماء فترتوي من كل واطفة هَتُونِ
وأن إذا انقطع السحا بُ رويتُ قلبي من شُؤوني
ما لي خدينٌ مُؤنسٌ كيف الحياةُ بلا خدينِ
وأحنُّ في غسَق الظلا م إلى الهوى دأبي حنيني

وثالثهم محمد محمود الزبيري الشاعر اليمني الثائر الذي شارك في ثورات بلاده وعرف التشرّد عن وطنه والتغرّب في الأرض ، فاستبدّ به الحنين ، إلى وطنه البعيد فانطلق ينوح على نفسه : (ثورة الشعر : ديوان الزبيري)

أنا طيرٌ حطّم المقـ ـدورُ عُشّي وجناحي
ورماني في نُثا ر من دُموعي ونُواحي
وحُطامٍ من بقا يا وطنٍ غيرِ صِحاحِ
ذهبت آهاتي السو داءُ أدراجَ الرِّياحِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم أجد سمعاً فأفرغـ ـتُ أنيسني في جراحي
وتنبَّهْتُ على أنـ ـقاضِ عُشٍ مُستباحِ
واغترابٍ بين غابا تٍ مخيفاتٍ فِساحِ
لا أرى إلاّ ظلاماً في غُدوّي ورَواحي
سُدَّتِ الطرقُ إلى عُشّـ ـيَ من كل النواحي
آهِ ماذا تصنعُ الآ هاتُ في البيدِ الشحاحِ
تَعِسَ الدمعُ إذا لم يستطع فكَّ سراحي
البُكا أعجزُ ما استخـ ـدمتَ في كسب النجاحِ

ولا تحتاج هذه الشواهد إلى تعليق ، وحسبنا أن نُشير إلى النغمة الإنسانية التي تشيع فيها ، وإلى شفافية الرمز التي تمنح الصور تلاوينها المشرقة ولمساتها الغنائية الوجدانية المؤثرة .

٦ ــ ولا ينفرد الشعراء المحدثون وحدهم بـ (أنسنة) الحيوان ، فقد شاركهم الكتاب الناثرون في تشخيص الحيوان وإنطاقه والتعبير عن طريقه عن أفكارهم ورغباتهم تعبيراً رمزياً يمنح أسلوبهم مزيداً من عناصر الجمال الفني والتشويق والتجديد ، كالذي نجده في (مذكرات دجاجة) للدكتور إسحاق موسى الحسيني ، و(حمار الحكيم) لتوفيق الحكيم ، و(جنة الحيوان) للدكتور طه حسين ، وقد لاقت (مذكرات دجاجة) في أوائل الأربعينيات من هذا القرن شهرة ورواجاً ، وقدّمها الدكتور طه حسين إلى القراء بقوله : « هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة ، بل هي دجاجة مفلسفة تدرس شؤون الاجتماع في كثير من التعمّق وتدبّر الرأي » والحق أن هذه المذكرات كتبت قبل وقوع النكبة عام ١٩٤٨ بخمس سنوات ، وكاتبتها الدجاجة العاقلة الحكيمة لها مبادئها ، فهي تكره العنف وتحضّ على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السلم ، وتنشر روح العدل ، وتدعو إلى الحق ونبذ الجور والخصام ، وهي تقف من اجتياح الغرباء لمأواها موقف الفيلسوف المتأمل المفتون بالمثل العليا ؛ وبعد أن حلّت النكبة بالدجاجة الفلسطينية وشاهدت المذابح والمجازر التي أقامها الصهيونيون في وطنها ، تُرى هل بقيت لها فلسفتها المسالمة ، وهي ترى موجات الغرباء المهاجرين الوافدين على فلسطين ليجعلوها وطنهم القومي ودولتهم ، بالحديد والنار ، ويسلبوا الدجاجة العاقلة المسالمة مأواها ويطردوها منه لتصبح مشرّدة في أرجاء الأرض ! لقد كان على الدجاجة الفلسطينية المشرّدة أن تكتب الجزء الثاني من مذكراتها بعد حلول الكارثة ، ولكنها لم تعقل !

ولأحاديث الحيوان عن نفسه ومشاعره طرائف نجدها عند بعض كبار أدبائنا الكتاب ، مثل مصطفى صادق الرافعي الذي تطالعنا بعض مقالاته التي يضمها (وحي القلم) بنماذج مذهلة تدل على مقدرة عجيبة في تقمص الشخصية الحيوانية ، والتغلغل إلى أعماق أسرارها النفسية ، كمقالته حديث قطين : (وحي القلم : ١/٤٠ – ٤٨) التي يُدير الرافعي فيها الحوار بين قطين : قط نحيف هزيل طاوي البطن بارز الأضلاع كأنما همّت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر ، وقط سمين تبدو عليه آثار النعمة « وهو يموج في بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابُه ينشقّ سمناً » أو مقالته حديث خروفين (وحي القلم : ١/٥٤) التي يُدير فيها الحوار بين خروفين من أضاحي العيد : كبش كبير أقرن وخروف صغير مرح ، وقد أنطق الرافعي كل واحد بكلام يصوّر ما يهجس في داخله ليلة العيد : فالكبش مضطرب تركبه الهموم ، وهو يعلم ان شفرة الجزّار ستحزّ عنقه في ضحى اليوم التالي ، فهو لذلك منكمش على نفسه ، ولا يُقبل على التهام علفه ، وقد أطرق برأسه حزناً ، فهو لا يتحرّك ولا يثغو ، أما الخروف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصغير فكان يتوثب مرحاً ونشاطاً ، ويرسل ثغاءه الذي لا ينقطع مقبلاً على الكلأ يخضمه بشهية ، وهو غرٌّ لا يدري ما ينتظره عند الصباح ، فيقول له الكبش محذراً : « ويحك يا أبلهُ .. إنك لو علمتَ ما أعلم لما اطمأنّت بك الأرض ، ولرجعتَ من القلق والاضطراب كحبة القمح في غربال يهتزُّ وينتفض ! » .

لقد كان الرافعي أقدر كتابنا وأكثرهم موهبة في تصوير (الحيوان إنساناً) ، وله حكايات من قصص الحيوان نهج فيها نهج كليلة ودمنة ، وهي تعبق بروح من السخر الفني والنقد اللاذع والقدرة الخارقة على توليد الأفكار التي يضعها على لسان الحيوان . فتبرز شخصيته وتنم على دخائل نفسه .

(حياة الرافعي لسعيد العريان : ١٣٥ ـ ١٣٦)

ومن طرائف أحاديث الحيوان عن نفسه تلك الابتهالات التي يصور بها الكاتب اللبناني الكبير أمين نخلة (صلاة العنز في الريف) وهي ابتهالات عامرة بالتقوى والخشوع لله ، ربّ الإنسان والحيوان ، وقد تسلل الكاتب إلى باطن العنز لينطق الحيوان بالدعاء ، وصوّره ساجداً على ركبتيه ، خافضاً من التذلل والخشية قرنيه ، منادياً ربه بلهفة وانكسار :

« ربِّ سجدتُ لك على ركبتيّ ، وخفضتُ قرنيَّ هذين من فرط الخشية ، فامسحِ الأرض عُشباً وورقاً أخضر ، وأطلق حياضَ الماء ، واملأ الصهاريج ، ومُدَّ بساط الظلّ في أذى الهواجر !.

ربِّ ، واجعل قلوب الرعيان تخفق من رحمة ، وعِصِيَّهم تملس من ليان ، وقصبات مزاميرهم تسيل من طرب !.

ويا ربِّ أسألكَ بالغمام إذا نهض ، والغيث إذا سقط ، وبهذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللُجج من الخضرة ألا تُرسل بي إلى المدينة ! آمين » .

(المفكرة الريفية لأمين نخلة)

فهذه الصلاة الخاشعة للعنزة الريفية ترفع الدعاء إلى الله أن يُنعم على العنز في الريف بالمراعي الخضر والظلال الظليلة والمياه الجارية ، وأن يُلهم قلوب الرعاة أن تلين رحمة وحناناً ، وأن تلين عِصِيُّهم التي يهشّون بها عليها ، وأن يملأ قلوب مالكيها رأفةً بها ، فلا يرسلوا بها إلى المدينة حيث تنتظرها هناك سكيّن الجزار !.

— ١١ —

وهكذا نصل الآن — بعد عرضنا الطويل المتسلسل خلال العصور لما في أدبنا العربي من محاولات لأنسنة الحيوان ووصفه من الداخل ودفعه إلى الإعراب عن نفسه بلغة عربية مبينة — إلى ما وعدنا من تقديم نص طريف للروائي الأميركي وليم فولكنر من روايته (اللصوص) يرصد فيه ذكاء البغل ويقارنه بذكاء بعض الحيوانات الأخرى التي تعيش في إحدى المزارع ، ويقع النص في ثلاث صفحات من الرواية (ص١٥٤ — ١٥٦) يخص بها المؤلف بغلاً ولدته فرسٌ قام (ند) الزنجي بتعشيرها من حمار المزرعة ، فصار ذلك البغل « أسطورة من أساطير عائلة » أصحاب المزرعة ، وكان بعض أفراد تلك العائلة يرعى البغل ويُشرف على (تربيته) ويلازمه مع الزنجي الذي استولده ، فعاين من طباعه وتصرفاته ما يؤهله للحكم على ذكائه ، ومقارنته بذكاء غيره من الحيوانات الأخرى في المزرعة ، كالجرذان والقطط والكلاب والخيول ، بنظرة موضوعية وأحكام مُعَلَّلة صادرة عن خبرة عملية طويلة ، ومعايشة يومية للحيوان في تلك المزرعة ، وملاحظة دائبة للسلوك الحيواني عند تلك الحيوانات التي يوازن بين ذكاء كل منها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

موازنة يُغلّفها سخرٌ ناعم يجعل منها تحفة طريفة حقاً . فهو يُصنّف ذكاء الحيوان في المزرعة في مراتب : فالمرتبة الأولى للجرذان ، والثانية للبغال ، والثالثة للقطط ، والرابعة للكلاب ، والخامسة والأخيرة للخيول ، وليس بدٌّ من أن نقدّم النص بكامله ، ليحتفظ بوحدته ، وتكتمل لدينا أطراف الصورة مجتمعةً عن سلوك تلك الحيوانات وقدرتها على التأقلم مع المحيط والظروف الصعبة من حولها ، ثم نُعقبها بتحليل أجزاء الصورة – حسب المراتب الخمس المذكورة – والتعليق عليها بما كتبه الجاحظ والتوحيدي والدميري عن سلوك تلك الحيوانات وطباعها وأخلاقها وذكائها ، ونحاول من خلال ذلك أن نرصد نقط الاتفاق والاختلاف بين ما يقوله فولكنر اليوم وما قاله الكتاب العرب قبله بأكثر من ألف عام !.

١ – يقول فولكنر على لسان رفيق (ند) زنجي المزرعة :

« إن البغل الذي يركض مسافة نصف ميل في الاتجاه الذي يختاره له راكبُه ، ولو مرة واحدة ، يُصبح أسطورة الجوار ، أما البغل الذي يفعل ذلك باستمرار فيُعتبر ظاهرةً لا تُصدَّق ! لأن البغل أذكى من أن يُرهق قلبه بالركض مسافة ميل طلباً للمجد كما يفعل الحصان ؛ لذلك أصنّف البغال في مرتبة تلي مرتبة الجرذان في الذكاء !

بعد البغال تأتي القطط ، ثم الكلاب ، وأخيراً الخيول ، هذا إذا كنت تقبل تعريفي للذكاء ، وهو كما أراه ، المقدرة على مجابهة البيئة ، أي الاستسلام للبيئة وقبولها كما هي ، مع المحافظة على شيء من الحرية الذاتية !

أُصنف الجرذ في المرتبة الأولى : فهو يعيش في بيتك دون أن يُساعدك على شرائه أو بنائه أو إصلاحه ، وهو يأكل ما تأكل دون أن يُساعدك على زرع طعامك أو حمله إلى البيت أو شرائه ، ولا يمكنك أن تتخلّص منه !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تأتي القطط في المرتبة الثالثة ، وتشترك مع الجرذ في بعض الصفات ، لكنها مخلوقات أضعف من الجرذ وأتفه منه . القطة تتطفّل عليك ، تعيش معك ، وتعتمد عليك اعتماداً كليًّا في المأكل والمأوى ، لكنّها لا تُدافع عنك ، ولا تُحِبُّك !

وأصنف الكلب في المرتبة الرابعة ، فهو شجاع ووفيٌّ وثابتٌ في ولائه ، وهو أيضاً طُفيلي عليك ، يتّضح عجزُه بخدمتك ، أعني تلقائياً وبسرور . إنه يقوم بأية لعبة مهما تكن سخيفة مقابل التربيت على رأسه ، ويتضح عجزُه أيضاً من كونه مُتملّقاً ، فهو يحطّ من كرامته وينتهكها من أجل تسليتك ، ويُحرّك ذيله تذللاً ، جواباً عن رفسة ! وفي المعركة يُضحّي بحياته من أجلك ، ويموت جوعاً وهو يرقد فوق قبرك حُزناً عليك !

أما الحصان فيأتي في المرتبة الأخيرة : إنه كائن لا يستطيع التفكير في أمرين في وقت واحد ! أبرز صفاته الجُبن والخوف ؛ يستطيعُ طفلٌ أن يخدعه ويتملّقه ، فيجعله يحطّم أضلاعه أو قلبه في الركض مسافةً بعيدة وبسرعة كبيرة ، أو في القفز فوق أشياء عريضة أو عالية . إنْ لم يُرْعَ كالطفل يأكل حتى يموت ، ولو كان عنده درهمٌ واحدٌ من ذكاء الجرذ لكان هو الخيّال !

لكنّ البغل يحتلُّ المرتبة الثانية ، أضعُه في هذه المرتبة لسبب واحد ، هو أنه باستطاعتك أن تُشغّله ، لكن ضمن الأنظمة الصارمة التي حدّدها لنفسه ، فهو لا يسمح لنفسه بالإفراط في الطعام . يجرُّ عربةً أو محراثاً لكنه لا يجري في سباق . لا يقفز فوق أي شيء إن لم يتأكّد مُسبقاً أنه يستطيع القفز فوقه . لا يدخل مكاناً إلاّ إذا عرف ضمنياً ماذا يوجد في الطرف الآخر ! يعملُ لك بصبرٍ مُدّته عشر سنوات على أمل أن تُتاح له فرصةُ رفسكَ ولو مرةً واحدةً ! وبكلمة صريحة ، إنه مُرتاح من التزامات النسب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومسؤوليات النسل . لم يقهر الحياة وحسب بل الموت أيضاً ، فهو لذلك خالد : إذا بادَ عن وجه الأرض اليوم فإن التركيب البيولوجي الذي أنتجه بالأمس سينتجه بعد ألف سنة ، دون تبديل أو تغيير ، ودون أن يسري عليه قانون التطور ، وهو يبقى مع ذلك حُرّاً وقادراً على مواجهة وضعه ، وهذا ما جعل بغل ند فريداً من نوعه ، أو قل ظاهرة خاصة ! ضع اثني عشر بغلاً في حلبة سباق ، وعندما تصدر كلمة « انطلق » فإن البغال تتجه في اثني عشر اتجاهاً مختلفاً ، كما تنتشر حشراتٌ خائفةٌ على سطح مستنقع ، والبغل الذي يصادف أن يكون اتجاهه باتجاه المرمى يكون الرابح حتماً ! » .

ولكن فولكنز يُقرر بأن هذا الحكم لا ينطبق على بغل الزنجي (ند) إذ كان يجري كالحصان ، إنما دون هوس الحصان واضطرابه واندفاعاته السريعة المخيفة التي تُضني القلب ، ذلك أنه يركض وكأنه يؤدي عملاً ، بالسرعة الصحيحة الضرورية التي يُقدّرها لنفسه ، وفقاً للمسة من (ند) أو صوته أو أية إشارة منه ، ولم يعرف أحد سر البغل في استجابته تلك التي تجعله يجري بصورة تختلف عن أيّ بغل آخر ، حتى وافته منيته عن اثنتين وعشرين سنة ، دون أن يُغلب مرة واحدة ! (اللصوص : ١٥٦ – ١٥٧) .

٢ – إذا كان الذكاء عند الإنسان يعني سرعة الفهم ، والقدرة على التصرف بحكمة في الأمر المفهوم (محاورات الفرد نورث هوايتهد : ١٩٤) فتعريف الذكاء الذي يقدمه فولكنز للسلوك الحيواني هو « المقدرة على مجابهة البيئة ، أي الاستسلام للبيئة وقبولها كما هي ، مع المحافظة على شيء من الحرية الذاتية » وهكذا يكون التصرف بحكمة والتأقلم مع البيئة المحيطة بالكائن الإنساني أو الحيواني يحدّدان مقدار ذكاء أي منهما .

وقد صنّف فولكنز الجرذان في المرتبة الأولى من الذكاء : وعلّل ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بأن الجرذ يعيش عالة على صاحب البيت ، دون أن يؤدي له أية خدمة ، وعند الجاحظ نجد ملاحظات تؤكد ما يتمتع به الجرذ من ذكاء كبير في سلوكه وتدبيره لمعاشه وإيثاره السلم والعافية إذا لم يجد نفسه مضطراً للدفاع عن نفسه : فهو في تأمين معاشه ، فيما يأكل أو يحسو ، غاية في الذكاء « فإنه ليأتي القارورة الضيقة الرأس ، فيحتال حتى يدخل طرف ذنبه في عنقها ، فكلّما ابتلّ الدهن أخرجه فَلَطَعَه ، ثم أعاده ، حتى لا يدع في القارورة شيئاً » (الحيوان : ٥/٢٤٨) وهو في سلوكه يؤثر العافية والسلامة والفرار على مجابهة الشر ، فالقتال ليس من طبيعة الجرذ ، وهو أذكى من أن ينهك قواه ويستنزف طاقته في مصارعة جرذ آخر ، فإذا وقعت الواقعة وتلاقى الخصمان راح كل منهما يتوعّد الآخر ، ويضرب بذنبه ، ويرفع صدره ، وهزّ رأسه ، ولكنهما لا يصطدمان أبداً ، ويكتفيان بالصخب والتهديد ، ثم يلوذ كلٌّ منهما بجُحره ، وقد وصف شاهد عيان للجاحظ ما رآه من ذلك بعينه ، وهو ثمامة بن أشرس الذي قصّ على الجاحظ ما رآه في سجنه من جرذان السجن ، فقد كانت زنزانته مسرحاً للصراع الحامي بين جُرَذين متخاصمين . وكان كل منهما يتوعّد خصمه ، ويثيران صخباً شديداً ثم يفرّان المرة تلو المرّة ، دون أن يُصيب أحدهما عضٌّ أو خمشٌ (الحيوان : ٢/١٦٥ و٥/٢٥٠) ولكن الجرذ يتخلّى عن طبيعته المسالمة إذا ألجأته الضرورة إلى القتال ، وقد لاحظ الجاحظ أن الجرذ يقاتل الجرذ أشد القتال إذا شُدّت رِجْلُ أحدهما في طرف خيط ، وشُدت رجل الآخر بالطرف الثاني من الخيط ، فهناك تقع الواقعة حقاً ، فيتوثّب كل منهما على الآخر ، ويكون بينهما من العضّ والخمش وإراقة الدم وفَرْي الجلود ما لا يُرى في غيرهما من أنواع الحيوان التي يُهارَش بها ، حتى ينقطع الخيط المشدود ويلوذ كلٌّ منهما بالفرار في جهة تخالف جهة الآخر !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الحيوان : ٢/١٦٤ و٥/٢٤٦) فالجرذ يقاتل بشراسة وضراوة إذا أحاق به الخطر ولم يجد بداً من مقارعة خصمه إذا هاجمه ، ويحكي الجاحظ أنه رأى سنّوراً عنده ساور (واثب) جرذاً في بيت الحطب ، فأفلت الجرذ منه وقد فقأ عين السنّور ! (الحيوان : ٥/٢٤٦) أما إذا لم يكن خطر ولم تدع الضرورة إلى مجابهته فالفرار أسلم عاقبة ، ممّا يُفسّر قول التوحيدي : « إن أخذ إنسانٌ جُرذاً فربطه في بيت فرّت منه الجرذان كلُّها » (الامتاع والمؤانسة : ١/١٩٢) .

٣ – والبغال تجيء في المرتبة الثانية من الذكاء ، في تصنيف فولكنز ، وقد علّل ذلك بأن البغل أذكى من أن يرهق قلبه بالركض مسافة طويلة ، طلباً للمجد كما يفعل الحصان ، وهو يتأقلم مع الظروف المحيطة به ضمن حدود يرسمها لنفسه ولا يتجاوزها ، فلا يجري في سباق ، ولا يقفز فوق حاجز ، وهو صبور على المشقة التي يتحمّلها من صاحبه إلى أن تتاح له يوماً فرصة سانحة للانتقام منه برفسةٍ قد يقتله بها !.

والجاحظ شديد الاهتمام بملاحظة طبائع البغال ، وقد أفرد لها كتاباً خاصاً بها نجده في الجزء الثاني من (رسائله) وخلاصة ما يقوله عن أخلاقها وسلوكها ، وما يقوله التوحيدي والدميري عن طبائعها وذكائها ، يُعطينا أكثر الخصائص التي حدّدها فولكنز للبغل ، ويبقى الخلاف في الحكم على ذكاء البغل ، فالدميري يقول عن البغل إنه مركّب من الفرس والحمار ، ولذلك صار له صلابة الحمار وعظمُ آلات الخيل ، ولكن ليس له ذكاء الفرس ولا بلادةُ الحمار ! (حياة الحيوان : ١/١٣٨) فالبغل عنده دون الخيول في الذكاء ، ولكنه أذكى من الحمير المعروفة ببلادتها وغبائها ، فهو إذاً قد ورث الحدّ الأوسط عن أبويه ، وهو قبيح الصوت ، فشحيحُه مولّدٌ من صهيل الفرس ونهيق الحمار (حياة الحيوان : ١/١٣٨)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو هجين عقيم الصلب لا يولد له ، ولتخفّفه من مسؤوليات النسل ، ولعدم إفراطه في طعامه ، طال عمره ، فالبغل أطول عمراً من كل شيء من الحيوان (رسائل الجاحظ : ٣٠٤/٢) وذكر فولكنز أن بغل (ند) مات عن اثنتين وعشرين سنة كما رأينا ، وأخلاق البغال – كما يرصدها الجاحظ – ذميمة ممقوتة ، فالبغل كثير التلوّن ، والشعراء العرب يضربون المثل بسوء أخلاقه لذلك ، فابن حازم الباهلي يقول في هجاء صديق متلوّن لا تدوم مودته :

مـــا لي رأيتُـــكَ لا تـــدو مُ عـــلى المـــودة للرجـــال
خُـــلُقٌ جـــديـــدٌ كُلَّ يـــو مٍ مثـــلُ أخـــلاقِ البـغـــال

والبحتري يهجو قوماً بذلك فيقول :

وأخـلاق البغـال فكـلّ يومٍ يَعنُّ لبعضهـم خُـلُقٌ جديد

(رسائل الجاحظ : ٢٥٦/٢ وثمار القلوب للثعالبي : ٣٦٤)

والبغل شديد العداوة لرائضه ولراكبه ، وهو قتّال لصاحبه ، ويضرب الجاحظ الشواهد على من قتلته بغلته (رسائل الجاحظ : ٢٥٧/٢ – ٢٦٤) وقد أشار فولكنز إلى خصلة الحقد عند البغل على صاحبه ، فهو يصبر على الأذى حتى تتاح له الفرصة فيسدد رفسة يُفرغ فيها كل غضبه وحقده وعداوته المكبوتة لينتقم من صاحبه شرّ انتقام ، والعجيب أن التوحيدي يجعل الحقد من طبيعة الجمل فيقول إنه يرتصد من ضاربه الفرصة لينتقم منه ، فإذا أصاب ذلك لم يستبق صاحبه ! (الامتاع والمؤانسة : ١٨٦/١) فالبغل مشابه للجمل في طبيعتهما الحاقدة وانتظار الفرصة المناسبة للانتقام الهائل ! والبغل حرون عند الحاجة ، والحِران إليه أسرع ، ودواؤه أعسر ، كما يقول الجاحظ (رسائله : ٣٢٦/٢) وحرانه لونٌ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من تمسّكه بحريته ، وعناده يزيده إصراراً على صاحبه لكي يحتفظ له بفرديّته ، فلا يطالبه بالانتظام في سباق مع كوكبة من البغال ، فإذا أُرغم على دخول الحلبة اختار بعناد اتجاهاً مخالفاً لغيره ، ليخسر السباق ، لكي يدرك صاحبه أن من الخير له ألا يعاود تدريبه وترويضه على ما لا يرضاه ، وهذه الطباع كلها تشف عن ذكائه واعتزازه بشخصيته ، وهو حين يرضى يكون في ذروة ذكائه ، وهنا يحكم المراقبون له بأنه « أهيدى للطريق للناس وأثبت حفظاً » كما يصفه التوحيدي (الامتاع والمؤانسة : ١٨٧/١) .

٤ – ويصنّف فولكنز القطط في المرتبة الثالثة من الذكاء ، وأبرز ما يراه من ذكائها أنانيتُها وتطفّلها على صاحب البيت ، فهو يتكفّل بإيوائها وإطعامها ، وهي لا تفعل شيئاً من أجله ، ولا تدافع عنه ، ولا تحبه !

والحديث عن أنانية القط مألوف ، وكثيراً ما يقارنون بين أثرة القط وإيثار الكلب . يقول هوايتهد في محاوراته : (ص٢٥٩) : « إذا وثب الكلب في حجرك فلأنه مُغرم بك ، وإذا فعل القط ذلك فلأن حجرك أكثر دفئاً ! » ولكن الجاحظ يقدّم لنا عن طباع الهرّة صورة مناقضة ، فهو يعد السنّور آنس الخلق بالناس (الحيوان : ٣٢٤/٥) والهر والكلب عنده حيوانان ألوفان « إن طُردا رجعا ، وإن أُجيعا صبرا ، وإن أُهينا احتملا » (الحيوان : ١٩٦/١) ويقول الدميري عن السنور وأصحاب المنزل الذي يُؤويه : « إذا طردوه تملّقهم وتمسّح بهم ، علماً منه بأنه يُخلّصه التملق ، ويحصل له العفو والإحسان ! » (حياة الحيوان : ٣٦/٢) ويبرز الجاحظ حب الهرة لأولادها ، وإيثارها إياهم على نفسها ، فإذا أُطعمت شيئاً حملته لأولادها وآثرتهم به ، ولذلك يقال (أبرُّ من هرّة) لإيثارها أولادَها على نفسها ، وقد عزا العرب أكل الهرة أولادها إلى شدة حبها لهم (الحيوان : ١٩٧/١) والسنّور يأكل الفأر والجرذان والحيات والعقارب ، وهو بذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقدم خدمة كبيرة لصاحب البيت ، خلافاً لما يراه فولكنز ، ولكن الدميري يشير إلى أنانية السنور فهو إذا ألف منزلاً منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، خوفاً من أن يحتل واحد آخر من بني جنسه مكانه عند أهل المنزل إذا رأوا أن يُقدّموا الوافد الجديد عليه ، أو أن يشاركوا بينه وبينه في المطعم . (حياة الحيوان : ٣٦/٢) ولا تخلو ملاحظات الجاحظ للسنور من إشارات إلى لؤمه وشرهه وسرقته للطعام وخيانته ، وبعد أُلفته للمكان لا للناس فيه ، وهو يعدّد بذلك النواحي السلبية في سلوك هذا الحيوان ، وقد أولع الجاحظ بالمقارنة بين الهر والإنسان ، وهو يَراه يناسبه في أمور : فهر يعطس ويتثاءب ويتمطى ، ويغسل وجهه وعينه بلعابه ، كما أولع الجاحظ بالإنصات إلى أصوات السنانير ومُوائها ، ليميز (الحروف) التي تتداخل في أصواتها ، وقد لاحظ أن القطط قد تهيأ لها من الحروف أكثر ممّا تهيأ لغيرها من الحيوان ، كالعندليب والببغاء ، وكان الجاحظ يُصغي في جوف الليل إلى تجاوب القطط في داره ، وتوعّد بعضها لبعض ، ويحصي الحروف التي تموء بها والتي لو أُلّفت لكانت لغة للسنانير ، متوسطة الحال ، كما يقول ، ولكنها صالحة للدلالة على مرادها . (الحيوان : ٢٨٩/٥) . وكل هذا يكشف لنا أن الجاحظ كان يبذل مجهوده لتحديد الجانب الإنساني في طبيعة الحيوان ، ومعرفة ما أودع الله صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطرها عليه من غريب الهدايات ، وسخّر حناجرها له من ضروب النغم الموزونة .. وكيف أعطى كثيراً منها من الحسّ اللطيف والصنعة البديعة ، من غير تأديب وتثقيف .. فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها ، من البدهة والارتجال .. ما لا يقدر عليه حُذّاق رجال الرأي وفلاسفة علماء البشر ، بيد ولا آلة » (الحيوان : ٣٥/١) .

٥ – ويصنف فولكنز الكلاب في المرتبة الرابعة من الذكاء ، ويُعلل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك بأن الكلب شجاع ووفي وثابت في ولائه لصاحبه ، حتى ليضحّي بنفسه في سبيله فيموت حزناً على وفاته ، وهو يرقد جائعاً فوق قبره ، وهو الذي كان في حياته طفيلياً عليه ، كثير التملّق له ، يستهين بكرامته لإرضاء صاحبه وتسليته ؛ فهو أقل ذكاء من أن يدرك أن لنفسه حقاً عليه وأن عليه أن يخفف من تضحيته وإيثاره ! وعند الجاحظ نجد عناية بالكلب تفوق عنايته بأصناف الحيوان الأخرى . وفي الجزأين الأولين من الحيوان مناظرة طويلة بين (النظّام) صاحب الكلب و(معبد) صاحب الديك حتى قيل « أيُّ شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك حتى يتفرّغ لذكر محاسنهما ومساويهما والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما شيخان من عِلْية المتكلمين » (الحيوان : ١/٢٠٠) والجواب أن المناظرة تمثل وجهاً من أوجه الصراع ضد الشعوبية ، فالكلب رمز للعرب والديك رمز للفرس ، وكان كلٌّ من صاحب الكلب وصاحب الديك يدافع عن رمزه الحيواني ويهاجم رمز خصمه ، فإذا اتهم صاحب الديك باللؤم والجهل والجبن وراح يعدّد مثالبه وعيوبه ويصفه بالغدر والنتن والقذارة ، وعلّل اتهامه إياه بما يراه في الكلب من هوانه على نفسه ، واتباعه لمن أهانه ، وإلفه لمن أجاعه وأعطشه ، وبما يراه فيه من فزعه من كل شيء ، وشدة صخبه ونباحه وعوائه وتحرّشه وتسرّعه (الحيوان ١/٢٢٢ و ٢٨٠) وبما يراه من بخله حتى ليقال : « أبخل من كلب على جيفة » (الحيوان : ١/٢٢٧) راح صاحب الكلب يدافع عن حيوانه المتهم بتعداد محاسنة ومزاياه ورواية القصص والأخبار عن وفاء الكلب طبيعةً وغريزةً من غير تكلّف ولا تصنع منه (الحيوان : ٢/١٢٢ ، ١٢٨) وعن شجاعته في حماية نفسه وحماية غيره ، وعن صبره واحتماله (الحيوان : ٢/١٢٧ و ١٧٥) وعن ذكائه ومهارته في الاحتيال للصيد والاهتداء إلى جحور الأرانب وغيرها من أصناف القنيص ، بما لديه من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قدرة على التبصّر والتسمّع والتشمم ، حتى ضربت الأمثال به فقيل « أبصر من كلب ، وأسمعُ من كلب ، وأشـمُّ من كلب » (الحيوان : ١١٨/٢ و٣٥٢) ويُسهب الجاحظ في تفنيد المزاعم التي تحط من قدر الكلب وتجعل من إيثاره لصاحبه ووفائه له وإلفه لبيته وصبره على الجوع والعطش دليلاً على ذلّتـه وهوانه على نفسـه : ففي الكـلب أنفةٌ ونُبل فهو « لا يرضى بالنوم والرُّبوض على بيـاض الطريق » و« من نبله في نفسـه أن يتخيّر أبداً أنبل موضع في المجلس » (الحيوان : ١٦٢/٢) وهو مع ذلك يؤثر صاحبه على نفسه ، وهو « يعرف صاحبه ، فإذا رآه قادماً اعتراه من الفرح والبصبصة – تحريك الذيل – والالتواء الذي يدل على السرور وعلى شدة الحنين بما لا شـيء فوقـه » (الحيوان : ١٢٨/٢) ويقرّر التوحيدي أن من طبـاع الكلب الترضي والبصبصة والهشاشة لمن عرفه .. وليس في الحيوان أشد حباً لصـاحبه منه ، فإن أشـار له على صيد وثب ناصباً رأسـه ، رافعاً ذنبه ، مستعداً كالفارس البطل والشجاع النجد ، مع نشاطه في الطلب ، وهو يعـلم أن الصيد ليس بحاضر ، لكن ذلك منـه حسن طاعة لصـاحبه » (الامتاع والمؤانسة : ١٢٨/١ – ١٨٣) فهو حيوان ألوف مُطيع « يقبل التأديب والتلقين والتعليم » (حياة الحيوان : ٢٧٩/٢) ولشدة ألفته للناس ووفائه لصاحبه ألّف بعضهم كتاباً في (تفضيل الكلاب على كثير ممّن لبس الثياب) فضّل فيه الكلب الوفي الأمين على كثير من الناس لخيانتهم وتلوّنهم وغدرهم .

بقي أن نشير إلى ملاحظة الجاحظ للجانب الإنسـاني في سلوك الكلب : فصاحب الكلب يفهم عنه ، كما يفهم عن السنور والفرس كثيراً من إرادته وحوائجه ومقاصده (الحيوان : ٣٢/١) ويقول الجاحظ : « إن باطن الكلب يُشبه باطن الإنسان ، كما يُشبه ظاهر القرد ظاهر الإنسان »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الحيوان : ١/٢١٥) وتلك ملاحظة تدل على تعمّق الجاحظ في دراسة تكوين هذا الحيوان وطبيعته من ظاهره وباطنه وخارجه وداخله ، تعمقاً يجعل الصورة الجاحظية للكلب غنية بخطوطها وألوانها ، وعند مقارنتها بصورة فولكنر يبرز فقر الصورة الأخيرة بخطوطها السطحية السريعة وألوانها الباهتة .

٦ – والمرتبة الخامسة والأخيرة في تصنيف فولكنر للذكاء عند حيوانات المزرعة تعطى للحصان أدنى حظ من المقدرة على مجابهة البيئة والاحتفاظ بشيء من الحرية الذاتية ويُعلل فولكنر حكمه الصارم على غباء الحصان بأنه محدود التفكير ، لا يستطيع أن يفكّر في أمرين في وقت واحد ! وبأنه غرٌّ ساذج يستطيع طفلٌ أن يخدعه ويتملّقه ويجعله يحطّم أضلاعه أو قلبه في الركض لمسافة بعيدة وبسرعة جنونية أو في القفز فوق الحواجز العريضة والعالية ، ولو كان له ذكاء الجرذ لم يدع أحداً يمتطيه ، وكان هو الخيّال !

هذا حكم صارمٌ ساخر على طبيعة الحصان وذكائه ، وهو يساير المفهوم الذي حدّده فولكنر للذكاء عند الحيوان ، وهو القدرة على التأقلم مع المحيط دون التفريط الكامل بالحرية الذاتية ، ولهذا كان البغل عنده أذكى من الفرس ، خلافاً لما يراه الدميري تماماً ، فالبغل عنده أذكى من الحمار ولكنه دون الفرس ذكاء ! (حياة الحيوان : ١/١٣٨) والعتاق من الخيل عند الجاحظ تُجيد الركض إذا أُجيد إضمارها ، وتشارك راضية في ميادين السباق وتقفز فوق الحواجز العريضة والعالية ، لتؤمّن لصاحبها الفوز ولنفسها المجد ، ولكن ذلك لا يعني ضعف شخصيتها واستسلامها لطفل يخدعها ويسوقها إلى هلاكها ، « فالخيول العتاق – كما يؤكد الجاحظ – ربّما قتلت الفرسان بالحران مرةً ، وبالإقدام مرةً ، وبسوء الطاعة وشدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجزع ، وربّما شبّ الفرس بفارسه حتى يُلقيه بين الحوافر والسيوف » (الحيوان : ١٨٣/٧) ومن طباع الفرس الزهو كما يقول التوحيدي (الامتاع والمؤانسة : ١٨٣/١) وكيف يزهو كائن هزيل الشخصية ومعدوم الثقة بنفسه ، يتلعَّبُ به الطفل الصغير ويدفع به إلى الموت ! وكيف يعد فولكنز الخوف والجبن من أبرز صفات الفرس ، وهو السلاح النبيل الذي له في المعارك ، وهو تحت فارسه ، غَناء لا يُشبهه غناء (الحيوان : ١٤٤/٧ – ١٤٥) وقال الله للمؤمنين : ﴿ وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ، ومن رِباطِ الخيلِ تُرهبونَ به عَدوَّ الله وعدوَّكم ﴾ [الأنفال : ٦٠] ويؤكد الجاحظ أن الإنسان يفهم عن الفرس – كما يفهم عن الكلب والسنّور – كثيراً من إرادته وحوائجه ومقاصده ، وأن للفرس عند رؤية المخلاة حمحمةً تخالف ما تدل عليه حمحمتُه عند رؤية أنثاه (الحِجْر) . (الحيوان : ٣٢/١) .

– ١٢ –

وهكذا نصل إلى نهاية عرضنا المطوّل للجهود التي بذلها الأدباء العرب – شعراء وكتاباً – خلال العصور في تصوير السلوك الحيواني ، وللمحاولات التي قاموا بها للتسلّل إلى باطن الحيوان ، لتحليل نفسيته ، وتفسير طباعه ، وتحديد ذكائه ، وتقديمه في إطار إنساني يعبر عن مشاركة وجدانية حميمة بين الإنسان والحيوان ، وقد ختمنا العرض بموازنة مطوّلة بين ما كتبه الجاحظ والتوحيدي قبل ألف عام ، وما كتبه الدميري قبل سبعة قرون ، بما كتبه الروائي الأميركي المعاصر فولكنز عن سلوك بعض الحيوانات وذكائها في إحدى رواياته ، وقد تبين لنا أن العرب قد تعمّقوا رؤية الحيوان من داخله ، وفسّروا سلوكه وتصرّفاته ، وحلّلوا ميوله ونوازعه ، إلى حد يستدعي الإعجاب والتقدير والإكبار ، ولو أن الروائي الأميركي اطّلع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على ما يحويه التراث العربي من دراسة للحيوان وتصوير لطبائعه وذكائه قبل أن يكتب ما كتب لأغنى اللوحة الرائعة التي قدّمها عن حيوانات المزرعة غنىً عظيماً ، ولجاءت لوحته بإطارها الساخر الذي تقتضيه طبيعة فنه الروائي تحفة خالدة ، وأثراً لا مثيل له في الأدب الإنساني الذي يجهد أصحابه لتقديم الحيوان في سمت إنساني عاقل ناطق ، والذي يخلعون فيه على الحيوان مشاعرهم وخوالج نفوسهم وعواطفهم ، ويعيرونه ألسنتهم لينطق بها عنهم ، حتى ليغدو الحيوان رمزاً للإنسان ، أو معادلاً موضوعياً له ، تنزاح عنده الفروق الفاصلة بين الإنسان والحيوان ، وتبرز الصلة الجامعة بينهما ، حتى لكأن الإنسان كان في بعض مراحل تطوره حيواناً لا يعوزه غير النطق الفصيح والعقل والتفكير ليستوي إنساناً كامل الإنسانية ، يُعبّر عن ذات نفسه وأفكاره بلفظ مفصح مُبين .

ما أجمل أن يتم التقارب بين الإنسان والحيوان ، فيتعاطف الإنسان مع الحيوان تعاطفاً وجدانياً على النحو الذي يعبر عنه كيتس بقوله : « عندما يأتي إلى جواري عصفور ينقر الحصى يُخيّل إليَّ أني أنقر معه وأني أشاطره حياته ! » ويقترب الحيوان من الإنسان بلمسة فنية تجعله قادراً على أن يستعير لغة الإنسان ليعبر بها عما في داخله ، وينقل إلى الآخرين دخائل نفسه ، وما يعتلج في باطنه من أفكار وهواجس .. والأدباء القادرون على أن يُحيلوا (الحيوان إنساناً) بلمساتهم الفنية السحرية لهم الخلود والمكانة الأدبية الرفيعة في تاريخ الأدب الإنساني خلال العصور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— ١٣ —

المصادر والمراجع

١ ــ ابن خلّكـان ــ وفيـات الأعيان : نشره محمد محيي الدين عبد الحميد مصر ١٩٣٨ .

٢ ــ الأغاني (دار) لأبي الفرج الأصفهاني : طبعة دار الكتب المصرية .

٣ ــ اكتشاف جزيرة العرب : لجاكلين بيرين ، ترجمة قدري القلعجي .

٤ ــ ألف ليلة وليلة ــ المطبعة السعيدية (٤ مجلدات) .

٥ ــ ألف ليلة وليلة : للدكتورة سهير القلماوي ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .

٦ ــ أمالي المرتضى : تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٥٤ .

٧ ــ الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين مصر ١٩٣٩ ــ ١٩٤٤ .

٨ ــ أنا والشعر : لشفيق جبري ، معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ١٩٥٩ .

٩ ــ الأوراق ــ قسم أخبار الشعراء للصولي ، نشره هيورث دن ــ مطبعة الصاوي بمصر ١٩٣٤ .

١٠ ــ تاريخ آداب العرب للرافعي ، مطبعة الاستقامة ط٢ ، مصر ١٩٤٠ .

١١ ــ تجديد ذكرى أبي العلاء : لطه حسين ، دار المعارف بمصر ط٦ ، ١٩٦٣ .

١٢ ــ تحت راية القرآن : المعركة بين القديم والجديد للرافعي ، مطبعة الاستقامة ط : ٤ ، ١٩٥٦ .

١٣ ــ التطور والتجديد في الشعر الأموي : للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ط : ٢ ، ١٩٥٩ .

١٤ ــ تعريف برسالة (الصاهل والشاحج) للمعري : للدكتور أمجد الطرابلسي (فصلة من مجلة المجمع ١٩٧٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٥ ـ تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب : لابن المرزبان ، تحقيق زهير الشاويش : المكتب الإسلامي .

١٦ ـ التنبيه والإشراف : للمسعودي ، طبعة الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٨ .

١٧ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : للثعالبي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٦٥ .

١٨ ـ ثورة الشعر : ديوان الشاعر اليمني الثائر محمد محمود الزبيري . .

١٩ ـ جنة الحيوان : للدكتور طه حسين : كتب للجميع ـ مصر (مطابع جريدة المصري) دون تاريخ .

٢٠ ـ حمار الحكيم : لتوفيق الحكيم .

٢١ ـ حماسة أبي تمام : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٥١ .

٢٢ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ، مطبعة الاستقامة بمصر ١٩٥٨ .

٢٣ ـ حياة الرافعي : لمحمد سعيد العريان ط : ١ مطبعة الرسالة بمصر ١٩٣٩ .

٢٤ ـ الحيوان (لأرسطو صاحب المنطق) عن (الحيوان) للجاحظ .

٢٥ ـ الحيوان : للجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مصر : ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥ .

٢٦ ـ دراسات فنية في الأدب العربي : للدكتور عبد الكريم اليافي ، دمشق ١٩٦٣ .

٢٧ ـ ديوان أعاصير مغرب للعقاد (عن : مع العقاد للدكتور شوقي ضيف) .

٢٨ ـ ديوان البحتري : تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف مصر .

٢٩ ـ ديوان هدية الكروان للعقاد (عن : مع العقاد للدكتور شوقي ضيف) .

٣٠ ـ ديوان ولي الدين يكن ـ مطبعة المقتطف والمقطم بمصر : ١٩٢٤ .

٣١ ـ رسائل إخوان الصفاء .

٣٢ ـ رسائل الجاحظ (كتاب البغال) المجلد الثاني : ٢١١ ـ ٣٧٨ ، بتحقيق عبد السلام محمد هارون ـ مكتبة الخانجي مصر : ١٩٦٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣٣ ـ رسالة (الصاهل والشاحج) للمعري ، بتحقيق بنت الشاطئ : دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .

٣٤ ـ رسالة الغفران للمعري : بتحقيق بنت الشاطئ ـ ذخائر العرب : مصر ١٩٥٠ .

٣٥ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف بمصر : ١٩٦٣ .

٣٦ ـ الشعر الحديث في الإقليم السوري للدكتور سامي الدهان ، معهد الدراسات العربية العالية بمصر : ١٩٦٠ .

٣٧ ـ الشوقيات لأحمد شوقي .

٣٨ ـ في صالون العقاد كانت لنا أيام : لأنيس منصور ـ دار الشروق بيروت ١٩٨٣ .

٣٩ ـ القرآن الكريم .

٤٠ ـ قصص لافونتين (خرافاته بالفرنسية : Les Fables de Lafontaine) .

٤١ ـ كتاب الفصوص لصاعد البغدادي (نسختان خطيتان منه في المغرب : واحدة في مكتبة القرويين بفاس (رقم ٥٨٧ ل) والثانية في الخزانة العامة بالرباط (رقم ١٦٦٨ ك) .

٤٢ ـ كليلة ودمنة ط٤ مصر ١٩٣٤ (بعناية محمد حسن نائل المرصفي) .

٤٣ ـ اللصوص : لوليم فولكنز ـ تعريب خالدة سعيد : دار مجلة شعر بيروت : ١٩٦٣ .

٤٤ ـ محاورات الفرد نورث هوايتهد : سجلها لوسيان برايس ـ ترجمة محمد محمود ، دار المعرفة بمصر : ١٩٦١ .

٤٥ ـ مذكرات دجاجة : للدكتور إسحاق موسى الحسيني (اقرأ) دار المعارف بمصر : ١٩٤٣ .

٤٦ ـ مع العقاد : للدكتور شوقي ضيف (اقرأ) دار المعارف بمصر : ١٩٦٤ .

٤٧ ـ المفكرة الريفية : لأمين نخلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤٨ – من (عمر أبو ريشة) شعر : دار مجلة الأديب ببيروت : ١٩٤٧ .

٤٩ – نكت الهميان في نُكت العميان : للصفدي ، تحقيق أحمد زكي مصر ١٣٢٩هـ .

٥٠ – نهاية الأرب في فنون الأدب : للنويري (طبع دار الكتب بمصر : ١٩٢٣) .

٥١ – وحي القلم : لمصطفى صادق الرافعي ، ط : ٢ (مطبعة الاستقامة بمصر ١٩٤١) .

٥٢ – اليتيمة = يتيمة الدهر للثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مصر (دون تاريخ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ١٤ -

الفهرس

ص

١ – تمهيد : الموضوع وتحديد أبعاده وهيكل خطته ٤١٧
٢ – التآلف الوجداني بين الإنسان والحيوان في الشعر الجاهلي (عنترة وفرسه) ٤١٨
٣ – الحيوان ناطقاً في القرآن الكريم (النملة والهدهد) ٤١٩
٤ – أنسنة الحيوان في صدر الإسلام : (وصف لبيد للبقرة الوحشية الثكلى – وصف الشماخ للحمر الوحشية) ٤٢١
٥ – في العصر الأموي : (وصف ذي الرمة للثور الوحشي من داخله) ٤٢٣
٦ – في نهاية العصر الأموي وأوائل الدولة العباسية : موجة الارهاب تجعل من الحيوان رمزاً للإنسان وقناعاً له (كليلة ودمنة) – منطق الحيوان قبل كليلة ودمنة وبعدها ٤٢٤
٧ – الحيوان معادل موضوعي للإنسان : (البحتري والذئب في البادية – الألفة بين الإنسان والحيوان في شبه جزيرة العرب) ٤٢٧
٨ – ظاهرة رثاء الحيوان وتأبينه في القرن الهجري الرابع وتفسيرها : (البرذونيات – مراثي القاسم بن يوسف للحيوان – رثاء أبي الفرج الأصبهاني للديك – هرّية ابن العلاف ومعارضة ابن العميد لها) ٤٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٩ – التعمّق في دراسة الحيوان في العصر العباسي وما تلاه من عصور الدول المتتابعة : (كتاب الحيوان للجاحظ – رسائل إخوان الصفاء – الامتاع والمؤانسة للتوحيدي – حياة الحيوان الكبرى للدميري) الحيوان إنساناً والإنسان حيواناً في القصص الشعبي (ألف ليلة وليلة) ٤٣٣

١٠ – الحيوان إنساناً في الأدب العربي الحديث : نماذج شعرية لدى شوقي وولي الدين يكن وعباس محمود العقاد وعمر أبي ريشة وخير الدين الزركلي وشفيق جبري ومحمد محمود الزبيري – نماذج نثرية في (مذكرات دجاجة ، وحمار الحكيم وجنة الحيوان ووحي القلم والمفكرة الريفية) ٤٣٥

١١ – تصنيف (وليم فولكنز) لذكاء حيوانات المزرعة في مراتب خمس : (١ – الجرذان ٢ – البغال ٣ – القطط ٤ – الكلاب ٥ – الخيل) ومُقارنة تصنيفه بما قاله الجاحظ والتوحيدي والدميري قبله بقرون طويلة ٤٤٦

١٢ – خاتمة : المضاهاة بين ما كتبه الروائي الأميركي وما كتبه العرب تظهر تعمق العرب في رؤية الحيوان من داخله ، ولو قرأ فولكنز ما لدى العرب من تراث أدبي عن الحيوان قبل ما كتبه في (اللصوص) لاستطاع أن يجعل من تصنيفه أثراً عالمياً لا مثيل له ٤٥٨

١٣ – المصادر والمراجع ٤٦٠

١٤ – الفهرس ٤٦٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net